جمال محمد إبراهيم

رواية القبطي الأخير





بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : القبطي الأخير (رواية)

المـــــــؤلف : جمال محمد إبراهيم

لوحة الغلاف: الفنان السوداني إسلام كامل

الطبعة الأولى 2013



إهداء . .

إلى رُوْح «ماريو أنطون»،

الدبلوماسيّ «الأم دُرماني» النّاصِح

السُّمْرةِ. .

كَيفَ الرّجاءُ مِنَ الخُطوبِ تخَلُّصاً مِـنْ بَعْـدِ مـا أنْشَـبنَ فيّ مَخالِبَـا
أوْحَـدْنَني وَوَجَـدْنَ حُزْنـاً واحـداً مُتَناهِيــاً فجَعَلْنَــهُ ليَ صــاحِبَا
ونَصَـبْنَني غَـرَضَ الرُّمـاةِ تُصِـيبُني مِحَنٌ أحَدُّ مِـنَ السّـيوفِ مَضـارِبَا
أظْمَتْنــيَ الـدّنْيا فَلَمّــا جِئْتُهَــا مُسْتَسْـقِياً مَطَـرَتْ علـيّ مَصـائِبَا

مِمَّا اقتطفَ الرّاوي مِن شِعرِ أبي الطيّب المُتنبي

مَا يُشبه المُقدِّمة

أنا الفصلُ الأخيرُ في هذهِ الرّواية، فكيفَ جوّزتُ لنفسيَ أن أكتب ما يشبه المُقدّمـة لهـا، وأنـا لستُ براويها ولا مالكها ولا بطل أحداثها . . ؟

لوْ لَمْ تكن بيدي المخطوطة، أو إنْ لم أطّلع على كرَّاسات القبطيّ القديم «بطرس مـيلاد سِـمعان»، لكنتُ أنا راوي القصَّة، بل بطلها الأوحد– إنْ عنّ لي أن أؤرِّخ لحفيدِ الرَّجل صاحب القصّةِ الحقيقيـة، صديقي «عزيز سِمعان بطرس» – ولكن لا أزعم أنّـي بقـادر أنْ أفعـل ذلـك دونَ أن تـزلّ قـدماي إلى فخاخٍ، لن أعرف كيفَ أنجو منها. لم تكـن لي علاقـة بتفاصـيل تجربـة صـديقي «عزيـز» في مدينـة «أم درمان» التي نشأ فيها، لو لا أنْ هيأتْ الأقدار لقاءنا في أبعـد مكـانٍ عـن «مدينـة التـراب»، في العاصـمة الصينية «بكين»، و«مدينة التراب» هو الإسم الذي يُحبهُ «عزيز» لمدينة «أم درمان»، وقد راقَ لي الإسـمُ وإنْ كنتُ أنا من سُكان هذه المدينة المُحدَثين. لستُ مِن الرّاسخين المُقيمين فيها، فما ولدتُ فيها ولا نشأتُ بين أحيائها ولا عرفتُ دقائق الحياة فيها، إلا ذلك الذي تلقيناه في مقاعد الدَّرس من مادةِ التاريخ عن الثورة المهدية في السّودان، واتخاذها «أم درمان» عاصمة لها. هي المدينة التـي نفـر عنهـا الغـزاة، فكانت خلاءاً لم تُعمّر إلا بعد قدوم «المهدي» عام 1885 . .

جئتها نازحاً مِن «كسلا» عاصمة الشرق السودانيّ، أواخر سنوات الستينات من القرن العشرين، لألتحق ب«جامعة الخرطوم»، ودفعتْ بي ظروفٌ، بعد تخرَّجي من الجامعة والتحاقي بوزارة الخارجية، للسُّكنى في حَيّ «بيت المال»، وهوَ واحدٌ من أعرق أحياء «أم درمان». كنتُ أسمع عن أحياء مدينة التراب الأخرى، وهيَ عندي مجرّد أسماءٍ، لا تعني لي شيئاً لافتا. أحببتُ «أم درمان» بعد أن عرفتُ أحياءها وحاراتها وأزقتها، ثم أحببتها أكثر بعد أن عشت تفاصيل قصّة صديقي «عزيز سمعان»، عن مراتع صباه في «المَسالمة». أذهلتني تجربته في تلك البقعة التي حفظتْ جذوره مُنذ أزمانٍ سحيقة.

كنتُ في وزارة الخارجية في قلب الخرطوم، وهيَ وزارة الهيبة والسيادة، ويقع مبناها على مقربة من القصر الرئاسي، وذلك مما أضفى عليها قدراً كبيراً من الأهمية والخطورة. هنالك تعرَّفت إلى «عزيز سِمعان بُطرس»، وتعرّفتُ إلى عمِّهِ المستشار الدبلوماسيّ «جريس بُطرس»، غير أنّ الأخير غادر ليلتحق بسفارة السودان في «موسكو» – وقت أنْ كانت عاصمة لما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي – ومات هناك، فما أدركتُ كثير شيءٍ مِن قصته هو الآخر. في الحقيقة لم تتوثّق علاقتي ب«عزيز» إلا بعدَ أن التقينا في «بكين» وعملنا في سفارة السودان هناك. حدَّثني عن حكاية التحاقه بالسّلك الدبلوماسيّ، عَن كيفَ اقتفى أثرَ عمّهِ الدبلوماسي الرّاحل «جريس بطرس». كنتُ رفيقهُ في «بكين»، ولمستُ جانباً من تفاصيل علاقته مع صبيَّة صينيَّة عرفها هناك. جاء إلى «بكين» بقلبٍ مكسور

وبأجنحةٍ مهيضة، وكان أوّل أمره، أقرب إلى الزُّهد من كل شيءٍ في الدنيا، وأبعدهم في نـاظريّ مـن مخازيها. رأيتهُ في كثير مرّاتٍ مُتلفّعاً بثياب المُتصوِّفة ممّن عاشوا في تاريخنا الإسلامي، ولكنَّهُ مسيحيٌّ مُستمسكٌ بطقوس كنيسته، منقطعٌ إليها كما الرّهبان. بعد أن قدّمني لصديقته الصينية في «نادي الصداقة الصيني» القريب من «فندق بكين»، وهو المكان الذي يرتاده الأجانب والصينيون، ولا يثير وجـودهم فيه تلك الريّب التي يمكـن أن تنشـأ في اجتمـاعهم في أمكنـة أخـرى سـواه، سـعيتُ مـن بـاب حـبِّ الاستطلاع ليس إلّا، لأعرف تفاصيل قصّته معها. لكنّهُ بدا لي كتوماً متردّدا لا يرغب في إفشـاء جوانـب علاقته بالصَّبيَّة الصينيّة، أو علاقته بأيٍّ من السـودانيين الآخـرين الـذين زادتْ أعـدادُهم في العاصـمة الصينيّة، إثرَ قدوم طلابٍ كثيـرين مـن السـودان، للدّراسـة الجامعيـة فيهـا. تفاصـيل كثيـرة سـترد في مخطوطة صديقي «عزيز سِمعان بُطرس»، ولن أفسدها بمقدمتي هذه.

هذه قصته وليست قصّتي. مأساته، ولا يد لي فيها . جراحاته، وما كان هو القيصر في التاريخ، ولا كنتُ أنا بروتوس. قصّته أجل، ولكن ربّما تفصح بعض تفاصيلها عن عجزٍ أحسستُ بـه أنـا في مرحلة ما، عشتُ أيامها المُقلقة معه.

تمثّلتْ حيرتي في عجزي عن مدّ يدِ العون لصديقي «عزيز» في محنتـين. أولاهمـا العلّـة التـي لازمته في أيامه الأخيرة معنا في «بكين»، وثانيتهما قرار الوزارة إنهـاء خدمتـه، وهـوَ الدبلوماسـيّ المهنيّ طبعاً وتطبّعاً مُنذ أكثر من عشرة أعوام، بسبب ما أسموه «الصالح العـام». في الحقيقـة أنّ المحنتين تلازمتا بما أثار ريَباً متعاظمة لدى العاملين في السفارة السـودانية في «بكـين» . بـدا لنـا الأمرُ وكأنّ هنالك من يتشكّك في علّة الرّجل، والأجواء عموماً في «الخرطوم» ملأى بالشـائعات المُغرضة، وبالقصَصِ المختلقة تُحاك هنـا أو هُنـاك، قصْـدَ الـتخلّص مِمّـن لا ترغـب السـلطة الجديدة في رؤيتهم ناشطين في مكاتب الحكومة

. كانت السفارات السودانية في الخارج، أكثر المكاتب الرسمية خارج البلاد التي طالتْ سيوفُ الإحالة للصالح العام، رقاب العاملين فيها. لا وقت للتريّث أو التقاط الأنفاس والحرب الطاحنة تدور في جنوب السودان، وحركة التمرّد على السلطة المركزية في الخرطوم، قد استأسدتْ في الغابات وفي المدنِ هناك، وأحرزتْ اختراقات كبيرة، وأضعفتْ وجود القوات الحكومية وأنهكتْ قدراتها. نافذون في السلطة يعرفهم الناسَ واحداً واحدا، رجّحوا يدَ البطش على يدِ الرّحمة، واندفاع الانفعال على حكمة التريّث، فأخذتهم بالناسِ شدّة ما بعدها شدّة بذرائعِ شتّى، وَغضّوا الطّرف عن خصوصية لطوائف سودانية راسخة، أُثير غبارٌ كثيف حول وجودها التاريخي، بينها طائفة انتمى إليها صديقي «عزيز». لسؤ حظي، كنتُ أنا مَن حمل إلى صديقي القبطي «عزيز سِمعان بُطرس»، قرار إنهاءِ خدمته، وما أثقلها من مهمّة.

كنّا على مشارف العقد الأخير من القرن العشرين، والصين تشخص عملاقاً جديدا. لكن برغم ما شهدنا من تحولات متعاظمة فيها، إلا أن انشغالنا ونحن في «بكين»، في السفارات البعيدة عن ساحة البلاد، كان كبيراً بما استجدّ فيها من تطوراتٍ نحمل همومها، وتقع علينا مسئولياتٌ جمّة لحفظ صورة وطنٍ تجذّر تاريخه في وادي النيل لقرونٍ بعيدة، تمازج فيها «فراعنةٌ» و«أقباطٌ» و«عنجٌ» و«فونجُ» ومسلمون و«نيليون حاميّون» و«نوبة» و«بِجة حاميّون»، فاتسقت صورة من التنوّع زاهية الألوان. يبدو أنّ ثمّة رموزاً وقياداتٍ في السلطة لا ترى تلك الرؤية. لا ترى تلاقح مكوّنات الفسيفساءِ يتجلّى على ذلك المشهد الجغرافي السّاحر، فيما النزاع يطول أمده في جنوب البلاد، والنظام العسكري الجديد يأخذ الأمور بشدة وحزم فيهما شطط ومبالغة. كان تاريخُ البلد برغم ذلك، حاضراً في ذهنِ صديقي «عزيز»، وإنّي لأشهد أنّهُ كان مُخْلِصاً لمهنته، يمارسها باقتدارٍ وحنكةٍ، بتجرّدٍ وبصدقيّة. .

- قبطيٌّ أنت ؟

- لا ونعم. .

- سودانيٌّ. . ؟

- لا ونعم . . !

- من تكون إذاً. . ؟

- أنا سودانيٌّ قبطي. . لطائفتي جذرٌ في ترابِ البلد. .

هذا هوَ . «عزيز سمعان بطرس». .

ظلّ يشتكي من علّة لم تفارقه تلكم الأيام : صداعٌ عاصفٌ وحُمَّى لم يُعرف لها سببٌ، طحنتْ جسده طحناً مُبرحاً. ظننتُ لأول وهلة، أنّ الحنين إلى البلد ضاعف من إحساسِهِ بالوحشةِ والانقطاع عن بلده الذي يبعد آلاف الأميال عن الصَّين، البعيدة في أقاصي الشرق.

في يومٍ أسود مِن أيامِ عام 1989، بلغنا في النشرة الإعلامية التي ترد من رئاسة وزارة الخارجية في «الخرطوم» إلى سفارات البلاد في الخارج، نبأ إعدام سودانيٍّ قبطيّ من أبناء «المَسَالمة». غاب «عزيز» عن مكتبه واعتكف في شقته بعيداً عنّا .

كلّمني من هاتفِ بيته في مُجمّع «سان لي تون» الذي نقيم فيه وسط العاصمة الصينية «بكين»، وقال لي بصوتٍ محزون :

– «جرجس عبد المسيح» الذي شنقوه اليـوم، مـن أسـرة صـديقي «مـيلاد» ، وأعـرف أهلـه معرفتي لأهلي. هو رجلٌ خلوق، ولا أحد يصدّق قصّة تورُّطه في جريمة تهريب العملـة الأجنبيـة التي زعموا أنّهُ ارتكبها وبسببها أعدموه. .

– سمعتُ أنّ الحزنَ عليه خيّمَ على أنحاءِ أحياءِ «أم درمان ». .

– أجل، والبلاد كلها حزينة عليه . . لقد أحسستُ أنّ خنجراً أصاب مقتلاً في جسدِ طائفةٍ ظلتْ على «سودانيتها»، مُسالمة في تسامحها مع أهل المدينة الترابية، تماثل الصِّفةُ اسـمها تمامـاً : «المَسَـالمة». . غلبني الحزن وزاد إعيائي فأرجو أن تتركوني اختلي بنفسي هذا اليوم الحـزين. . البلـد ينزلـق إلى حافـة خطرة ، بعدها الهاوية . .

كنتُ أستمع إليهِ بأذُنٍ وعيني ترى واقعاً مختلفا، وتقرأ صورة مُنمّقة ينقلها الإعلام الرسـمي، ليستْ على درجة السوءِ الكبير الذي يقول عنهُ «عزيز سـمعان». هـاهيَ السـنوات تطـوي عهـداً وتفتح عهدا، والحالُ لم يتغيّر كثيرا. كنتُ أرى «عزيز» ناقماً على نظام أحالـه للصـالح العـام بـدمٍ بارد. نظام قتل معارضيه من العسكريين ومن السياسيين، بدمٍ أكثر مِن بارد ولم ترمش للمنفّـذين عيونٌ ولا جوارح .

مضتْ أيامنا سِراعاً في الصّين، تطوي مواسمَ صيفها وشتائها، بلا توقف ودونَ سانحة تلـوح لالتقاط أنفاسٍ ونحن في غربة مسوّرة بتضاريس من صنع الطبيعة، وبصخور شيّدها بشر صـبروا على طغاة أجبروهم على بناء سور الصين العظيم. .

تأهّبتُ لأغادر «بكين» ولأترك «عزيز سِمعان» ورائي هناك، بعد أن قُطِعتْ مهمَّتي في السفارة وعدّتُ إلى الخرطوم، منقولاً إلى ديوان الوزارة، ولا أعرف من حيرتي وقتـذاك، إن كنـتُ سـأنفد بجلدي من سياط الإحالة إلى التقاعد للصـالح العـام أم لا. ظـلّ «عزيـز» يسـألني مسـتعجباً أيّ صالحٍ عام هذا الذي يقطع أرزاق الناس وهم يخدمون أوطانهم ، فلا أعرف كيف أجيبه.

تركتهُ مهموماً يرتّب أمر عودته إلى بلادٍ لم ترَ في بذلِهِ ما يشفع له للبقـاء في «بكـين» يخـدم في سـفارة بلاده هناك. يستعجلونه – وكأنهم لا يأبهون لتقارير السفارة عن مرضه – للقدوم إلى ديـوان الـوزارة في «الخرطوم»، فيما تبقتْ له عدّة جرعات من العلاج الكيميائي في مستشفى «بكين» المركـزي، يُجاهـد بأمصالٍ ومضادات حيوية وجرعات كثيفة، تخثّرَ كروياته تنقلب مـن الأحمـر إلى الأبـيض، ويسـتميت ليقهر سرطان الدّم الغادر. قبطيٌّ يخرج من بيتٍ ترك جذوره في تربته، ولا يعرف بيتاً سـواه فتصـطاده محنٌ وأقدارٌ ومصائب، في انهمارها عليه، هيَ كالمطر الهاطل بلا توقّف. بينَ علّةٍ عـرَّتْ صـدره أمـام الموت، وتطهيرٍ قطع مصدر رزقه، ومهنةٍ أحبّها ثمّ طردوه منها، كنـتُ أرى سـيوفَ السّـماء وسـيوفَ الأرضِ تتهاوى على عنقه. كنت على قِلّـة حيلتـي وعجـزي، تصـوّرت في اضـطرابي أنّـي مُـلاقٍ ذات المصير .

وقفتُ في حيرتي، ألاحظ تدهور صحتهِ، ذلك التدهورالمُريع الـذي لا تملـك سـفارته التـي يعمل بها، إلا أن تتجاهله ولا تتحدّث عنهُ مع صاحب الشأن لطفاً بحاله.

– تمسَّك بالصَّبر يا رجل، وستعود العافية إليك. . شِدّة وتزول !

يعرف الرّجلُ أننا نجامله بكلامٍ مُنمّـقٍ يُدغـدغ بـدناً يتضعضـع، نُوهِمـهُ بتمنيـاتٍ مُخادعـة، وبعباراتٍ تتفكّك حروفها بعد النطق بها، فلا تُغادر أرضاً ولا تصل إلى سماء. كان بيننا وبينه بونٌ شاسعٌ، أنشأته العلّة التي حاصرتْ بدنه.

نظر إليّ والوَهَنُ قد استفحل في جسدَه كلّهُ، ثمّ قال وقد افترّ فمُهُ عن ابتسامةٍ باهتة :

– أخبرني الطبيبُ الصينيّ أنها اللوكيميا . . سرطان الدم . .

لفّنا الصَّمتُ للحظات حسبتها أطول من كلّ سنواتي التي أمضيتها في الصين . كنتُ قد عرفـت مـن الطبيب الذي يشرف على علاجـه أنَّ الحالـة خطيـرة، وأنَّ أمـل العبـور إلى بـرِّ المعافـاة، يكـاد يكـون مستحيلا. اللوكيميا مرض لعين يخنق صاحبه حتى الممات.

– ستعبر بإرادتك القويّة يا «عزيز». . الرَّب موجود ولـن نكـفَّ عـن الـدعاء إلى الله أن يمـنّ عليك بالشفاء . .

– إيماني قويٌّ بالرَّبِ يا رجل . .

ثم أضاف مبتسماً وقد كستْ ملامحهُ مسحةٌ مِن الصفاءِ الملائكي :

– نحنُ قوم نُعمِّر لسنين طوال. جدّي «سِمعان» القناوي الكبير عاش لما بعد الثمانين، عاصر عهد «التركية السابقة» وشهد طرفاً من أيام الثورة المهدية في البلاد. لا أخشـى المـوت يـا أخـي «بشير»، إنْ أراد الله لي ذلك . .

كنتُ أعجبُ من قوة تحمّله للعلّة القاتلة تحاصر خلاياه، خليّة إثر خليّة. أمسَكَ بيدي وهمَسَ بما لم يخطر ببالي حينها، أنها وصيته الأخيرة:

- خُذ كراسة يومياتي واحفظها عندك ولك أنْ تقرأها. . أمَا وعدتكَ أن أقصّ عليك قصة صديقتي الصينية. .؟ ستجد كلّ شيءٍ في الكرَّاسة. قصة جدِّي وأعمامي في «المَسالمة». . هنالك في «أم درمان». . وقصّة البنتِ التي فارقتها في «المَسالمة» وترَكتْ بداخلي جُرحاً، تهون أمامه جراحاتُ اللوكيميا التي استعمرتْ بدني، وسيوفُ جرَّاحي البلد الجُدد يشكّلون له بمشارطهم، جسداً جديدا. .

- هوّن عليك يا صديق ولا تؤذِ نفسك باجترارِ ما يؤلمك. .

- لوكيميا القلب، وهيَ الأشدّ ألماً، غزتني منذ سنوات بعيدة يا صديق. . ربّما منذ سنوات «التركيّة السابقة»، والريّبُ تحاصر أجدادي وقد توهّم معظم أهل البلد وقتذاك أنّهم حلفاء للغزاةِ الأتراك الغاصبين. على أيام الرّهق تحت حُكم «عبدالله التعايشي»، خليفة المهدي في «أم درمان»، تجدّدت الريّبُ حول أجدادي، واستفحل الحسدُ يأكل قلوبَ بطانة الخليفة على جدّي المسيحيّ «ابراهيم الخليل»، وهو خِدن الخليفة والمسئول عن أموال دولته، وكذلك على القبطيّ «يوسف ميخائيل» كاتب بعض رسائله وناسخ بعضها. نحنُ من أبناء «أم درمان» وتاريخنا من تاريخها. كان منتدى جدَّنا القبطيّ «أنطون شرقي»، محفلا يأوي عدداً مِن اقطاب الحركة الوطنية والمتعلمين، قبل أن تستنشيء الحركة دارها في «نادي الخريجين»، خلف محله التجاري الشهير في سوق «أم درمان». . السودان بلدي. . هُنا . . !

ورفعَ قبضةَ يدِهِ ودقّ بها صدرهِ العليل مكرراً:

– السودان بلدي. . هُنا . .

كنتُ أستمع لحديثه الطويل، ولكن لم يفتني أن ألاحظ دمعةً انحدرتْ على خدِّه.

لا ، بل على عظمة خدِّه، فقد تراجعتْ عيناهُ إلى محجريهما، وغدا الرأس منه جمجمة بشعرٍ أبيض، والجسد ممصوص من لحمه فصار كما الهيكل العظمي. أدرتُ وجهي لناحية لا يرى معها دمعة غلبتني أنا أيضاً. .

– ستجد كلَّ شيءٍ في كرَّاستي هذه، كلّ شيء. . ثمَّة كرّاسات أخرى سأسلمك إيّاها ولكَ أن تطلّع عليها أنت أو غيرك إنْ شئتَ، وأوصيك أن تُعيد أصولها إلى جدَّتي «ماريا»، والدة عمّي الرّاحل «جريس سِمعان بطرس» في حيّ «المَسَالمة». .

تناولتُ منه الكرّاسات الصغيرة، ثم كرّاسة أخرى سميكة، ناءتْ بحملها يداه الناحلتان. هذه المرّة رأى دمعة عجزتُ عن حبسها، وأضاء وجهه بابتسامة واهنة .

ثم قال وأنفاسه المتقطعة تموّه كلامه:

– لا عليك يا صَديق . .في هذه الكراسات قصّتي كاملة بحذافيرها . .

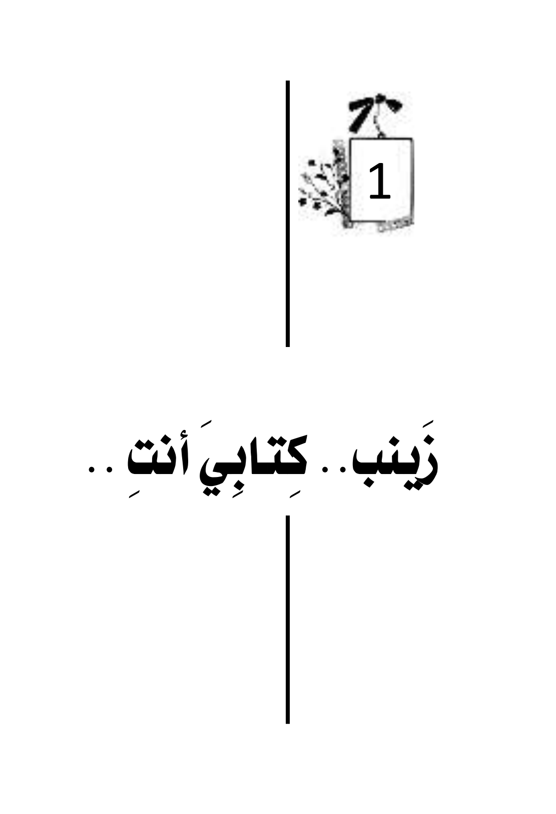
– أمانتك عندي إلى أنْ نلتقي في «الخرطوم» . .

أجل. . ودّعته على أمل أن نلتقي في الخرطوم . .

لكننا لم نلتقِ بعدها، إلا في أوراق كرّاسته السميكة التي عهدَ بها إليّ . .

تلك قصّة «عزيز سِمعان بُطرس».

دمعتي عليه، لم تجف بعد. .



زَينب.. كِتابِيَ أنتِ..

كيفَ لقبطيٍّ مِثلي أنْ يتعشّق مُسلِمة، إنْ لم أكن أنا «عزيز»، وإنْ لم تكن مدينتي هيَ «أم درمان»، مدينة التراب والتسامح، أو إن لم يكن جدّي هو ذلك الشاعر المسيحيّ الذي نظم قصيداً فخماً احتفاءً بمولد الرّسول محمّد، وكان شاعراً من شعراء المدينة الترابية، قبل وفاته في أربعينات القرن العشرين؟ كان جدّي «بطرس سِمعان» شاعراً لا يُشقّ له ترابٌ ولا غبار. شعره التقليدي، يمتدّ من أمور الدّين إلى أمور الدنيا وإلى عشق النساء الجميلات. أغنياته، سار بها المغنون والرُّكبان. العشاقُ والغاوون. البائعون في السوق والمشترون. تخيّلتُ في صباي الباكر، أنني قد أكون مثله، يكتب لي القدر أن أترسّم خطى قلبه وطريق وجدانه العامر بالمحبّة، فأكون شاعراً فحلاً مثله. عاشقا مُدنفاً مثله. هو حلم وليس بحلم.

في سنواتٍ لاحقة، حينَ التحقتُ بكلية الآدابِ في جامعة الخرطوم، واخترتُ أن أتخصّص في الأدب العربي واللغة الفرنسية، لم يكن والدي راضياً كل الرِّضا، عن ذلك الاختيار. لولا عمّي «جريس بُطرس» الذي لم يُضع حجّة حتى أقنع والدي أنّ اللغة العربية، إلى جانب لغة أجنبية إضافية، ستفتح لي باباً واسعاً لالتحق بمهنة مثلَ مهنته الدبلوماسية، التي برز فيها عمّي، وجلبتْ له احتراماً وسط الأسرة الصغيرة في بيتنا، والكبيرة في حيّ «المسَالمة».

كان عمّي «جريس»، يريدني للدبلوماسية، وأنا عيني على جدّي «بطرس»، ذلك الشاعر النابـه في أم درمان، في تلك العقود الأولى من القرن العشرين، فارساً مغواراً في الشِّعر وفي العشـق. كـان حلمي أن أنظم قصيدة عشقٍ في «زينب»، مثلما كان يفعـل جـدّي، في غزليّـات شـهيرة، تناقلتهـا ألسنٌ معجبة في الحيّ، عن بناتٍ جميلات في «حيّ المسَالمة» وفي «حيّ العمدة»، في أعوامٍ غـابرة. كنتُ أحلم أحلاماً لا تغمض لي عينُ فيها، ولكن كان الكبار من حولي، لا يأبهون بأحلام الصغار، ولا ينشغلون بتوهّمَاتهم ومعابثاتهم.

– يا «جريس» أخي ، لا أريد للولد أن يبتعد عن عمل العائلة في التجارة. لنا إسـمٌ في سـوق أم درمان« وتجارتنا لا ينافسنا عليها أحد، لا «حسـين المصـري»، ولا صـديقي الشـامي «أنطـون شرقي»، ولا الهندي «نيان». لو خيّرتني يـا أخـي «جـريس» لمـا وافقتـه في الـدخول إلى دراسـة الآداب، فقط لو أحرز «عزيز» نجاحاً باهراً في المواد العلمية، لكان الآن في كليـة الطـب أو كليـة التجارة، ولكن ماذا نفعل وقد رسب في الرياضيات ؟

كنتُ أسمع والدي «سِمعان» يُحاجج شقيقه، وأعرف أن «جريس» لا يحب أن يجادل شقيقه الأكبر في أمرٍ يتصل بمستقبل ابنه، لكنهُ وقف بأدبٍ جم في صفّي، يساندني لدخول كليـة الآداب، وقد أحرزت درجات عالية تؤهلني للإلتحاق بجامعـة الخرطـوم، بحجّـة أنّ الدبلوماسـية التـي يشجعني عمّي لأن التحق بها، مهنة تتطلب معرفة باللغات، وكنتُ أنا في الحقيقة، من المبـرّزين في اللغة الانجليزية وفي اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية،

وفوق ذلك فإنّ أبي يعلم كيف أعجب أنا بعمّي «جـريس»، أحبّـه وأترسّـم خطـاه. صـديقي «سليم شرقي»، زميلي في المدرسة الثانوية، لم يتحمّس للالتحاق بجامعة الخرطوم، بل انخرط في هدوءٍ يعاون والده في محله التجاري، قبالة زقـاق «سـوق المويـة» في وسـط سـوق «أم درمـان» الكبير. صديقنا «ميلاد» التحق بجامعة القاهرة فرع الخرطوم . لم ترق لي مهنة آبـائي في تجـارتهم العريقة، يستوردون الأقمشة الصوفية والقطنية من مصر، ويحتكرون جلّ التجارة فيها. حكـى لي عمّي «جريس» أن السّوق العريق في «أم درمان»، ظلّ لآماد طويلة، ساحة للتنافس بـين الأقبـاط من أهلنا، والأرمن والهنود والشوّام. هؤلاء صاروا جزءاً من نسيج يضمّ كل أهل البلد، وقد أقام أجدادهم في سنوات القرنِ التاسع عشر، وبعضهم حلّ بالسـودان قبـل غـزو «محمـد عـلي باشـا الكبير» للأراضي التابعة للممالك القديمة القائمة بطول نهري النيل الأبـيض والأزرق، ومملكـة «الفونج» في «سنار»، تترنح قبل السقوط الأخير. بعـد سـنوات الاسـتقرار، وقـد توطّـد الحكـم التركي في البلاد، تشكل عشقهم للوطن «الأم درماني» هنا . . لا أعرف لِمَ كنّا نحسب الشوام أقـلّ انتماءا للبلد من بقية ساكني حيّ «المَسالمة»، من الذين أصولهم مصرية أو هندية أو شامية . .

يضحك عمّي «جريس» ويهمس لي :

– سأتعب كثيراً قبل أن أنقذك من أنياب السّوقِ وأبوك شيخُه. . !

بيني وعمّي «جريس» من الودّ ما يزيد على علاقة العم بابن الأخ. كنـت أجـد في أناقتـه، وهـو يخرج إلى وزارة الخارجية في الخرطوم، ما يحفّزني للاقتداء به، وتمثلته قدوةً جاذبة، وتمنيـت أن أكون مثلـه دبلوماسـياً تلاحقـه أعـينُ المُعجبـات في «حـي المَسَـالمة»، أعـينُ بنـات مسـلمات ومسيحيّات على السواء. ولم يبخل عليّ «جريس» بتشـجيعه لي كـلّ حـين، لأن أكـون دبلوماسـياً مثله.

– يقولون إنها وزارة السيادة، وما زال البعض يرى في أقباط السودان قليلَ انتماء إليه، فتسـمع من يرتاب في مقاصد التحاقك بالدبلوماسية السودانية !

قال عمّي بلهجة ساخرة :

– نحن لسنا جالية أجنبية تقيم في البلاد . لا وألف لا ! جدّك «سِمعان» قدم من «قِنا» إلى بلاد السودان بعد انهيار مملكة «الفونج»، وبعد أن سيطر الباشا الكبير على السودان ببضـعة سـنوات. والدي «بطرس» صار من الشعراء الكبـار في المدينـة بـل ومـن برعـوا في نظـم الشـعر الشـعبي، شعر«الحقيبة» في ثلاثينات القرن العشرين. لجذورنا المسـيحية في وادي النيـل تـاريخ قـديم، قبـل قدوم عبد الله بن أبي السرح. أمّا خلال «التركية السابقة» عام 1820 وما بعـدها، فقـد رسـخ وجودنـا لعقود طويلة وصار للأقباط خلالها، سهمٌ في تشكيلة التنوّع ، في فسيفساءِ السودان الذي ترى. .

– لا أتشكّك في كلامك، وليتك تطلعني على التفاصيل. نحن نسلُ «سِمعان» القنـاوي الكبيـر نحتاج لنستوثق من جذورنا . البلاد تتسع للجميع . . ولكن . .

وعدَ عمّي بأن يطلعني على ما طلبت. يقول لي إن مكتبته تحتـوي عـلى كتـب عديـدة تتنـاول تاريخ السودان. مجلدات بالإنجليزية كتبها إداريون بريطانيون ومآمير جاءوا من لندن ومرّوا على حكم البلاد. روايات ومخطوطات ومذكرات عديدة تملأ أرفف المكتبة.

إلى ذلك كنتُ أزور بيته في طرفِ «حيّ المَسالمة»، ليسَ بعيداً من بيت أبي، وأقضي السـاعات الطوال في الإطلاع على ما يعنّ لي من مجلداتٍ ومخطوطات قديمة، وكتـب في الأدب والسياسـة والثقافة العامة. كان يعجبني في عمّي أيضاً، ولعـه باقتنـاء الكتـب القديمـة والمجـلات العتيقـة والمخطوطات، ولطالما شجّعني على الجلوس في صالون بيته، أجوس بين الكتب والمجـلات. ولم أكن وحدي الذي خُصّ بالاستمتاع بهذه المكتبة الغنية، بل كـان معـي فتيـان مـن أصـدقائي وبنات من جيران بيت عمّي «جريس»، يزورون صالونه العامر، أيام العطلات. المسيحيون مثلي، يأتون يوم الأحد بعد الصلاة في كنيسة القديسين التي في الجوار، ومن أبناء المسـلمين أصـدقائي في الحيّ، يدلفون بعد صلاة الجمعة لقضاء الساعات الطوال في الإطلاع، وكـأنّ صـالونه مكتبـة عامة مُباح لنا أن نسكنها، فلا تجد عمّي «جريس»، يتذمّر أو يبدي ضيقاً من اقتحامنا لخصوصية صالونه ومكتبته في أيام راحته. برغم أن صبيّات معجبات يتحلّقن حول مكتبته وحول شخصـه، لكنّهُ ظلّ محتفظاً بسِمت الأعزب الزّاهد. بأناقته اللافتة، فإنه ذلك الطاووس المحلّـق في فضـاء بعيد ، لا يُطال.

في مكتبةِ عمّي «جريس» التقيتُ بالتاريخ ولكن أيضاً التقيتُ ب«زينب». «زينب أحمد إبراهيم الشقيلي» وهذا إسمها كاملاً. تعلّقتُ بها، بلا مقدّمات ولا تمهيد. كأنّها كانت تنتظرني في منعطفات الحيّ لأهواها. كنتُ مطمئناً إلى قدرٍ استبقاها لي. تورّد القلبُ عشقاً لها، وفاح مِن لدنّها عبقُ الودِّ واحتوتنا مصائرُ، تراءتْ لكلينا في الأفق البعيد، مثل الفراديس التي وعد الرَّبُّ بها المؤمنين. يحسدني أصدقائي على صفاء علاقتي بها. لم تثبط همّتي سخريةُ صديقي «سليم شرقي»، وقد ظلّ يردّد أمامي أنّ المسلمين لن يقبلوا بعلاقتي ببنتِ «الشقيلي» ويشاركه في ممازحاته صديقي «ميلاد» الذي في تجديفه وسخرياته، يراني نبياً جديداً يسعى سعيَ «سيزيف» لاختزال المسافة بين المسيحية والإسلام، وأنّ نبوءتي آيلة لا محالة إلى خسران. .

لم أحفل بالقيل والقال، ولا بمشاغبات أصدقائي «رأفت» و«ميلاد» و«سليم». .

بدأ حبّي لها ينمو مثلما تنمو الورود في تربتها الغنيّة، تتساقى من قطرِ النّدى، ومِن فيضِ الغيوث، رذاذاً حانياً لا يقسو على ورق الورد. قرّبتنا اهتماماتنا بالإطلاع ، وشغفنا بقراءة الرواية والشعر، وتواثقنا على ألفةٍ مجيدة.

«زينب الشقيلي». . أنتِ كتابي الذي خطّ قلبي سطوره، فقرة بعد فقرة، وصفحة تلو صفحة، فكنتِ مِلكاً لقلبي، كما تصوَّرتُ. لا أعرف متى تلاقتْ عواطفنا، وازدهرتْ الحدائق باخضرار عشقنا. .؟ بعد أيّ كتابٍ قرأت، أطلّ عليّ وجهكِ الصبيح، وقبل أيّ قصيدة خفقَ قلبي بحبكِ . .؟

لا أسمع إجابة، والغيومُ تلفّ سمواتي . .

لكن يظلّ السؤال ماثلاً أمامي، وأمام أقراني وأصدقائي، المتفائل منهم والمتشائم: كيف لقبطيٍّ مثلي أن يُولع بمُسلمةٍ، تسلبه لبّهُ، ويُكابد سرّه وحده ؟

أعرفُ أنّ السؤال قديمٌ ومُربكٌ، يتردّد على ألسنة أهلي في مدينة التراب «أم درمان»، في صيغة استنكارية لا تفتح باباً، إلا لمجادلةٍ غير مُجدية، أو للغوٍ تذروه الرّيحُ إلى أفقٍ مجهولٍ ومُفارقٍ لما تعوّدهُ الناس. أصمّ أذني تماماً عمّا يقوله صديقي «سليم مشرقي». لكأنّ علاقتي ب«بنت الشقيلي» هيَ مأزقي الماثل، فكيف تستنشيء الأسئلة إجاباتها، بين شارعٍ واحد، يفصل بين «حيّ المسَالمة» و«حيّ العمدة» و«حيّ الرّكابية»، من حارات «مدينة التراب» القديمة. مسلمون ومسيحيون أقباط، هنا وهناك. مدينة تغذّتْ من وجبات التنوّع إلى حدود التخمة، وسمتْ بجماعِ ألوانِ قُزح إلى لونٍ لا يُرَى إلا بخفقانِ القلب. . ؟

«سليم شرقي». . هل تسمعني ؟ وأنتَ يا صديقي «ميلاد» ويا «رأفت». . ؟

ما كنتُ أحسب – وأنا أتخلّق صبيّاً في مُراهقتي- أنَّ علاقتي ب«زينب الشقيلي» في أقصى توتراتها واندياحاتها، قد تفضي بي إلى متاهةٍ من الخلافات بين أسرتي وأسرتها. لم أكن أتصوّر أنّ حبيبتي «زينب»، قد تهلّ عليّ في صورة «جولييت»، ولا كنتُ أرى نفسي في لبوسِ «روميو»، تستفحل المآسي وتتصاعد، فنصل معاً إلى حافة الرّحيل المزدوج، خروجاً من دوائرالخلافات وحساسيات الأزمة، حتى يرتاح «شكسبير» في قبره. لا ! ليسَ ذلك بخياري ولا خيارها. .

كنتُ أقلّب مخطوطة قديمة من مخطوطات تخصّ جدّي الشاعر «بطرس ميلاد»، بعد أن صارتْ من مقتنيات إبنه الأصغر، عمّي «جريس»، حين تنبهتُ للصبيّة الجميلة تسألني عمّا بالمخطوطة .

– إنها قصائد جدّي وقد حوتْ قصصا حقيقية. . وأكثرها مِمّا تغنّى به مطربون مشهورون، منهم «كرومه» و«إبراهيم عبد الجليل» و«الحاج محمد سرور». .

قالت وكأنها لا تصدّق ما اقول أو تستنكره ضمناً:

– جدّك شاعرٌ إذاً. . ؟ ولكنّي أعجب كيف يتغزّل بصبايا الحيّ وهنّ مسلمات ، فيما هو مسيحيٌ قح. . قل لي ؟

– هذا أمر يريبني أيضا ولكن مِنْ بين شعراء الحيّ المسلمين، تجدين يا عزيـزتي، مَـن تغـزّل غزلاً صريحاً شهيراً بفتيات من ديننا. «ظبية المَسالمة ». الجميلة «فيكتوريا». «غزال المَسَالمة». أغنياتٌ سارت بها الرّكبان. كان الناس في تلكم السنوات عـلى تسـامحٍ أكيـد، والتواصـل لم يكـن تحكمه أمور الدين . .

أومأتْ برأسها توافقني وأضافتْ:

– كانت أيامهم وردية يا «عزيز». .

لا أنكر أنَّ قلبي خفق في تلك الهنيهة التي تبادلتُ معها هذا الحديث. تلوّنـت اللحظـة بلـونٍ وردي، ونظرتُ إلى أرفف مكتبة عمّي، فكانت من فرحٍ تصفّق من حولنـا، وقصـائد المخطوطـة كأنها أصواتٌ تخرج من الصفحات بموسـيقاها وبهمهمـات المغنيـين، كلامـاً مُنمّقـاً وتصـفيقاً ورقصا. من كانوا حولنا، أحسّوا بخفق قلبينا وتلعثم ألسنتنا، ولكـن مـا انشـغل بنـا أحـد. كنـتُ أطوّف في حُلمٍ ناعم، وما صحوتُ ممّا ألمّ بي من سِحر «زينب»، ووجدتُ أنّ خيلي الجمـوح لـن يستجيب لكوابحي، وأنّ همسي كاد أن يتجاوز أذني ليصل إلى أذان غريبة من حولنا:

- «زينب» . . رجوتك أن لا تغيبي عن مكتبة عمّي «جريس». .

ولم تغبْ «زينب»، ولا غاب قلبها عن محبّتي. يوماً بعد يوم، كبر الودّ شجرةً واتخذتْ لنفسها ثمراً وفاكهة، وما تركتنا الأيام لأقدار تتأرجح، بل جمعتنا حتى وصلنا معاً إلى عتبات الكلية في جامعة الخرطوم. هنالك في الطرفِ المُطلّ على شاطئ النيل الأزرق الجميل، تقبع مكتبة الجامعة. فيها أنسنا وحولها تجالسنا، وضحك القلب منّي وبكى كذلك. أكثر خفقانه ل«زينب» وأكثر نحيبه معها. غير أنّ لمكتبة عمّي في حيّ «المسَالمة» عبقاً مختلفاً، ولقلبي هناك بين الأرفف الخشبية المليئة بالمخطوطات، خفقانٌ يخطف الأنفاس خطفا، وأيامٌ آسِرٌ بريقها، آخذٌ بالأبصار أخذا.

قال لي عمّي «جريس» بعد أن فاتحته برغبتي في الارتباط بحفيدة «الشقيلي»:

- عزيز« . . قدرُك أخذك إلى مركبٍ صعب فيما أرى ، لكن كأنّ التاريخ يُعيد نفسه . . !

- ما الذي تقصد . . ؟

- تلك قصَّة طويلة من قصص التاريخ، و جدّك «سِمعان» القناوي الكبير بطلها . . سأحكي لك تفاصيلها حين تصفو الأجواء من حولنا . .

في لحظة صفاء اختارها القدر لنا، جلس إليّ عمّي وحدّثني- ليس عن جدّي - ولكن عن جدّها «إبراهيم الشقيلي». .

- الرّجل نازحٌ قديم أصوله من «إسنا». سمعت أنه جاء إبان سنوات «التركية السابقة» مع جماعة من «قِنا» فيهم المُسْلم وفيهم القبطيّ، حوالي 1835 وآثر أن يقيم في نواحي «الفتيحاب»، في الأطراف الجنوبية لمدينة «أم درمان » الحالية. . مِن أولاده مَن أقام في سنوات تالية، في «حيّ العمدة»، ليس بعيداً عن حي «المسَالمة». .

- ثمّة ما يجمعنا إذن، في تلك السنوات البعيدة . مثل «شرقي» ومثل «سِمْعان» الكبير، قدم «إبراهيم الشقيلي» من صعيد مصر. .

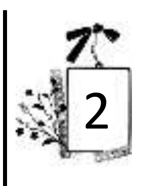
- كان «الشقيلي» - وفق رواية أبي «بُطرس»- مُسلماً قمحيَّ البشرة، بلحيةٍ مُميّزة وبطولٍ فارع. كان رجلاً صنديداً ذا سطوة وجبروت. قيلَ إنّهُ امتلك أسطولاً من المراكب الخشبية تجول بين النيل الأبيض والنيل الأزرق. نوتيٌّ محترفٌ لا يشقّ له غبار ولا موج. على أيام «خورشيد» حكمدار البلاد التركي، في سنوات القرن التاسع عشر البعيدة – تقول الروايات - تولّى الرّجل نقل الحجارة الجيرية بمراكبه، من منطقة خرائب «سوبا» إلى حاضرة البلاد الجديدة الخرطوم، وهيَ التي شيّد بها الأتراك مباني الحكومة المُطلة على شاطيء النيل الأزرق ، بما فيها قصر الحكمدار الحاكم العام . .

يحيّرني عمّي بالقصص التي يعرف عن مدينة التراب، ويعد بإطلاعي على مخطوطات كثيرة ومدهشة، عن أسرتنا وأسر جيراننا في «حيّ المَسَالمة» و«حيّ العمدة» و«حيّ الرّكابية». .

– أثرى «إبراهيم الشقيلي» من عمله وتركَ لأولاده في نواحي «أبو سِعِد»، ثروة مُعتبرة، حتى أنّ تجار سوق «أم درمان»، كانوا يقترضون منه ما يعينهم على تنمية تجارتهم. لولده «أحمد الشقيلي» محل تجاري في السوق، كان بمثابة «مصرف» غير رسمي للتسليف في «أم درمان»، في زمنٍ لم تعرف فيه البلاد المصارف. أحمد هو عمُ صديقي «صديق الشقيلي». . !

ها أنذا أقترب من حياض حفيدة ذلك الرّجل الذي أثرى من خرائب «سوبا» جنوبي «الخرطوم»، ومن سواقيهِ قبالة «الفتيحاب»، ومزارعه التي أورثها أبناءه على شطّ «النيل الأبيض». نعم، أثرى من خرائب «سوبا». . تلك المملكة المسيحية القديمة في أطراف الخرطوم. ترى هل تكون خرائب قلبي وأطلاله نهباً متاحاً لحفيدته الجميلة وقد سلبتْ لبّي، وتركتني في بيداءِ العشق ألعق حيرتي . . ؟

مضى عمّي إلى حالِ سبيله ، لكنه تركني لهواجسِ مُقلقة ومريبة . .



تُرابُ المَدينةِ وطينُها ..

سنواتُ الستينيات الباهرة في القرن العشرين. . لا أكـفّ عـن تـذكّر ألوانها الذهبيـة. كنّـا أنـا وأصدقائي «رأفت» و«ميلاد» و«سليم»، مزهوّين في يفاعتنا بكبرياء مزيفٍ تصورنا أنّا ورثناه مـن طائفةٍ مميزة انتمينا إليها. . لم تشغلنا السياسة وقد نالـت الـبلاد اسـتقلالها، وكنـا مـع ذلـك نتيـه إعجاباً عفوياً في الك السنوات، بزعامات في افريقيا والعالم العربي: جمال عبد الناصر. بـن بـيللا. أحمد سيكو توري . كوامي نكروما. موادييو كيتا. كينياتا. الإعجاب لم يبرح مكانه، إعجابـاً بـلا عمـق وبلا تفهّم ، سكن العاطفة لا العقل. لم نكن نعي تعقيدات السياسة وقتذاك، لكنه الانبهار بظـواهر المرحلة، بنجوم السنوات الزاهية في عـالم ودّع جراحـات الحـرب العالميـة الثانيـة. ال«بيتلـز». «فيدل كاسترو». «جون كينيـدي». «لـوي آرمسـترونج». «مـارلين مـونرو». «الفـيس بريسـلي». «كلارك جيبل» وسيم هوليوود. «جون واين» وصـورة راعـي البقـر القاسـي. «صـوفيا لـورين» وصدرها الثري. «جين مانسفيلد» وأفلامها الساخنة التـي أشـعلتْ نيـران صـبانا. كانـت «فـاتن حمامة» في السينما المصرية حلمنا الرومانسي، وقد غادر أرضـها إلى عاصـمة السـينما الأمريكيـة «عمر الشريف»، نجم «لورنس والعرب». لم نعبر في سنواتنا تلك إلى آفاقٍ أبعد من ذلك.

يُعيدني صديقي «سليم شرقي» لسنوات المراهقة، وأنا أتوغّـل غيـر هيّـابٍ في عشـق الصـبيّة «زينب»، فلا أرى إلا بهاء الصورة يأخذ بأبصاري، يحيلني إلى تاريخي في «مدينة التراب». لا آبـه إلى استفهامات تترصَّد خطواتي في تلك الطرقات القديمة. صديقي « سليم شرقي»، هـل تملـك إجابة لأسئلتي . . ؟

لكن تظلّ حيرتي ماثلة أمامي وأمام أقراني وأصدقائي : كيف لقبطيٍّ مـثلي أن يولـع بمسـلمةٍ، تسلبه لبّهُ، ويكابد سرِّه وحده ؟

خرجنا بعد المغيبِ، أنا و«سليم شرقي». في جيبي مصروف نفحني إيّاه والدي «سِمعان» على مضض. ادّعيتُ أني ذاهب إلى دار سينما «الوطنية أم درمان» برفقة صديقي «سليم»، حتى يوافـق والدي على غيابي في ساعات الليل، ويعرف هو أنّ الليـل لا أمـان فيـه في «مدينـة التـراب». أمـا صديقي «سليم» فهو الذي يقترح الخطط. هو الذي جيبـه مـليء بـالنقود، منـذ أن قـرر والـده أن يستبقيه ليساعده في إدارة محله التجاري في سوق «أم درمان» القديم، في زقاقه الشهير ب «سوق الموية». .

في طرفٍ بعيد داخل مقهى «شناكة»، جلسنا معاً. هنالك ثلة من شبانٍ مشغولين في أنسٍ، يعلـو ويهبط ضحكهم بين الفينة والأخـرى. ثلـة أخـرى مِـن صـبيانٍ أصـغر سـناً، تعلـو أصـواتهم في مشاغباتٍ حول لعبةِ الورق. يتصايحون بكلمات نابية لا يبدو أن أحـداً يسـتهجنها. عجـوزان في وسط المقهى يتقاسمان أقداح الشاي، وعلى الطاولة قطع الدومينو مُشتتة بلا نظام. لا أثر لإنـاثٍ في هذا المكان. مقاهي السّوق هيَ للرجال فقط. حدّقَ «سليم» مليّاً إليّ وقال:

- لا تجدني أتحمّس لعلاقتك ببنت «الشقيلي» يا «عزيز» . .

فاجأني صديقي «سليم شرقي» بالحديث عن علاقةٍ بدأتها ولا أعرف كيف أمضي على دروبها الشائكة، ولا إلى أين ستنتهي بي. كنتُ أرى المخاطر ولكنّي بعد، في أول الطريق. كان كلُّ شيء يبدو هيناً وقابلاً للتجاوز. في مراهقتي بدا الكونُ أمامي عجينة طيّعة، أوحى لي عقلي الفطير أنّي أملك أن أشكلها كيفما أردت.

- لا تغضبني يا صديقي. . علاقتي ببنت «الشقيلي» علاقة أخوية. .

ضحك «سليم» وكأنّهُ لا يصدّق وهتف ضاحكاً:

- نحن كبرنا على علاقات المراهقة يا «عزيز». . !

مَسَحَ «سليم» شاربه الغضَّ وكأنّهُ يريد تأكيد مزاعمِهِ أننا بلغنا مبلغ الرّجال، ولا ينبغي أن ننشغل بأمور الصِّبية المراهقين، فهي عنده مذمّة لا تناسب عمرنا. عمله في تجارة السوق أوحى إليه أنّهُ صار عاقلاً كبيراً، مع أنّهُ لم يكن يكبرني إلا بأشهرٍ قليلة. إختلاطه بالتجار وبأناسٍ في السوق، أكسبه تجربة لم تتح لنا نحن أقرانه في الحيّ، جعلته يقدم نفسه لي وكأنه معلّمي، كأنّهُ عرّابي الذي سيقودني لاكتشاف الحياة السريّة في المدينة.

- دعكَ من هراءِ الصّبيان هذا . . ستذهب معي اليوم إلى «الزّقاق» يا رجل. .

سألتُ في براءتي تلك:

- أيّ زقاقٍ تعني. . ؟

- لازلتَ على براءتك، مُغرماً بالكتب والقصص وعشق البنات أيها الرومانسي الواهم، ولا تريد أن تمشي بأقدامك على تراب الواقع وترى الحياة على حقيقتها. شغلك ولعُكَ بالبنتِ «زينب» عن اكتشاف الدنيا من حولك. «الزّقاق» المعرّف في لغة أهل السّوق، هوَ غير بقية الأزقّة في المدينة. أزقة الليل غير أزقة النهار. صديقنا «ميلاد» أجرأ منك ويعرف الكثير يا «عزيز». .

- لا أفهم هذه الألغاز التي تحدّثني عنها. . ثمّ لا أريدك أن تسخر من عواطفي تجاه «زينب». . أُغرمتْ البنت بي، فهل تحسدني على امتلاكي فؤادها. . ؟

أطلق ضحكته المُجلجلة وأمسك بيدي في مودّة :

- أنا ؟ أحسدك. . ؟ لا . لا . دعني أقودك يا صديقي إلى تجارب لا تعرفها. دعني أدخلك فردوساً واحداً من الفراديس التي عرفناها أنا و«ميلاد»، في «مدينة التراب» هذي. .

الشوارع التي كانت تحتشد بالمتسوّقين، هدأتْ الحركة فيها. بعضهم أغلق أبواب محله وتأهّب لمغادرة السوق، إذ لا أمان وقد تعتّمتْ الطرقاتُ واحتلكَ الليل. بدا «سليم» أمامي أطول قامة، وأصلب عوداً وأقوى إرادة. اقترح أن نحسب ما معنا من مالٍ قبل أن نتجه إلى مقصدنا. لم أفهم السبب.

- هل سيكلفنا ذهابنا إلى «الزّقاق» الذي تقول عنه، مالاً كثيرا. . ؟

كان سؤالي غبياً فآثر أن يهمل الإجابة عليه . نظر معاتباً وقال:

- صبرك عليّ . لن تندم بعد التجربة. .

المدينة الترابية التي تعرفنا ونعرفها، دهمها الظلام ولم أعد أميّز طرقاتها الضيقة. كنّا خلف دار «السينما الوطنية». الطرقات هنا تنقصها الإضاءة. المنازل المُطلّة على الطريق الضيّق، لا تكاد ترى أبوابها، والتي لا تتسع إلا لدخول شخص واحد. رجالٌ في جلابيبهم البيضاء يجيئون وآخرون يخرجون من المنازل الضّيقة، تحتك أكتافهم ولا تسمع كلمة اعتذار. يسرعون الخُطى وكأنَّ ثمَّة من يلاحقهم في هذا الظلام الدامس. ضجيج متقطع وضحكات أنثوية تخترق الظلام وتكاد تضيء من خلاعة متخفّية.

توجّستُ خيفةً ممّا رأيت، بل خفق قلبي، فقلتُ لصديقي، آملاً أن يبدّد شكوكي :

- أينَ نحنُ يا «سليم» . . ؟

الأمكنة التي تعوّدتْ عيناي عليها في «أم درمان» وفي قلبِ السّوق، هي المحلات التجارية. محلات «الطّوخي» وتتخصص في احتياجات الأطفال. محلات «شرقي» للأقمشة والتجارة. «نيان» الهندي وتجارة الشاي. محلات «حامد الأمين» لبيع الدرّاجات الهوائية. خمّارة «أبوللو». مقهى «ود الأغا». مكتبة «أم درمان» الوطنية. تجارة عثمان صالح. مكتبة الحرية. محل «ديمتري البازار»، المحتشد بمغنيين يخطّطون للسفر إلى مصر لتسجيل أغانيهم على أسطوانات. محلات «أولاد حامد» لتجارة الجملة هم من يحركون تجارة القطاعي في السوق. المدرسة الأميرية المأهولة بتلاميذها القادمين من مناطقٍ في الشمال ومن الغرب ومن الشرق. مكتبة «أم درمان» المركزية، يشكل وجودها دعوة خجولة لسكان المدينة للإطلاع. كنيسة «القديسين»، قبالة مسجد الحيّ. بيوت أهلي في «حيّ العرب» و«حيّ المَسَالمة» وفي «حيّ العُمدة» وفي «حيّ الرِّكابية».

«لأم درمان» رائحةٌ ومذاقٌ وتفتحٌ وانشراح. الصّبيان أكثرُ عدداً والصـبيّات قلـيلات. . أكثـر أوقاتي أقضيها في مكتبةِ عمِّي «جريس»، مع لداتي وأصدقائي. تشغلني قراءةِ الكتـبِ والروايـات والشعر، ولا أجد وقتاً لمتابعة الرياضة والناس حولي مشغولون بمعـارك فـرق كـرة القـدم «الأم درمانية»: «الهلال» و«المريخ» و«الموردة».

ذلك عالمي . تلك دنياي وأنا قانعٌ بالذي فيها.

– أين نحن ذاهبون يا «سليم». . ؟

لم يجبني .

توقّف عند منعطف خالٍ من الناس. نظر خلفه كالمتوجّس من شـيء ثـم طـرق البـابَ عـدة طرقات محسوبة، وكأننا أمام بوابة غامضة، سندلف عبرها إلى مغارة سريّة. انفتح البـاب بمقـدار يبيح لمن فتحه أن يرى وجه الطارق. سأل «سليم» وكأنهُ يهمس لنفسه:

– أنتِ «ألمظ» ؟ أريد «حليمة» . خبّريها أن «سليم». . الخواجة «سليم شرقي» هنا. .

أرخيتُ أذني ولكن لم أسمع صوتا يردّ على صديقي «سليم»، بل ضحكة أنثوية خافتة.

بدأتُ أتخيّل ما يريد أن يقودني إليه صديقي. سمعتُ عن أزقة في السّوق فيها نساء من أجناس مختلفة يبعن المتعة لطالبيها نظير مبالغ من المال. لم أكن أهتم بالمسألة

، لا لسببٍ معيّن، ولكن لربّما حدثتُ نفسي أنّ القدر يوما سيقودني إلى هذه الأزقة، على الأقل للتعرّف على تجربة جديدة. كنـت أدرك أني سـأكبر يومـاً ويتـاح لي أن أزور «الزّقـاق»، وأعـرف النساء. لم أكن على عجلةٍ مِن أمر زيارة هذه الأزّقة. في الحقيقة أني كنتُ أسمع مـن «سـليم» كثيـر مغامراته في هذه الأمكنة مع نساء جميلات وأخريات غير جميلات، يشتري المتعة بثمنٍ ويكتسـب تجربة لا تقدّر بثمن. كأني كنتُ أتوقّع يوماً ما أن يقودني هوَ إلى هذه الأمكنة.

حكى مرّة عن صديقة لهُ من شرق السودان. حينَ يزورها تفعل معهُ الأفاعيل. قال إن إسـمها «حليمة» ولكن ربّما كان الإسم من اختراعه. ذلك ليس مهمّاً. المُهم أنّه يجد المتعة كلها عندها. حين يحكي لنا، أنا و«ميلاد»، عن وجهها القمري وخدّها الأسـيل وجسـمها اللاحـم وأردافهـا المترجرجة ، لا نكاد نصبر من فرط الإثارة .

قال «سليم»:

– بعد أن فرغنا من مضاجعة ساخنة، قالت لي البنت وأنا سميتها «شيطانة الليل»، إنها لم تتوقع أن تجد «خواجة» قبطيّاً يحكي بالعربي ولا يكون مختونا ويفعل هذه الأفاعيل معها . . !

قتلنا الضحك.

– كان في اعتقادها أنّ كلّ من لـه بشـرة بيضـاء أو قمحيـة، وغيـر مختـون ، لا يملـك خبـرة المختونين في معارك السرير . .

ثمّة من يذكّرنا دائماً أن البيت الذي نحن فيه الآن، ليسَ بيتنا الأول، ولربّما لن يكون بيتنا الأخير. ثمّة من يذكّرنا دائماً أننا لسنا مثل الآخرين، حتى في اقتناص المتعة سرّاً في الأزقة السوداء، من غانية إسمها الحركي «شيطانة الليل». .

كان «سليم» الساخر بطبعهِ، يمطرنا بأقاصيصه بلا كلل، ونظلّ مشدوهين نبحلق في فضاءٍ حالك الظلمة، وتأخذنا الخيالات إلى فضاءات ملأى بإناث شبقات لا يشبعن من الشهوة. حين أغادر إلى البيت أتعب في ملاحقة خيالاتي المحتشدة بنساءٍ لا حصر لهن جئن في قصص «سليم»، ولكن في هدأة الليل، وبعد انحسار فورة الشهوة لنساء يقمن بين الحلم والواقع، تجيء إلى خيالي البنت «زينب». تدخل عليّ بجمالها البهيّ، بطيبتها، بحسنها. هل تكون «زينب». . ذلك الملاك الذي أحبّه، مختلفاً عن الفتيات اللاتي يَحكي عنهنّ «سليم شرقي». . ؟

بعد هُنيهة انتظار، هتفَ «سليم»:

- هيا ندخل . .

إضاءة البيت خافتة لدرجة أنّي لم أكد أتبين الأشباح التي تمرّ أمامي.

نادى «سليم» على «حليمة شيطانة الليل»، وطلب منّي قبل أن يختفي معها في غرفة بعيدة، أن أذهب مع «ألمظ» الحبشية إلى غرفتها. كنت أتصرف مثل مَن لا يملك إرادة . تناهى إلى مسمعي حديث «حليمة» وتهامسها مع الفتاة الإثيوبية، وبعضه سقط عن مسمعي. كانت تلمّح إلى شيء عند «سليم»، مثل الثعبان يخرج رأسه أملساً من مكمنه. تضحك الإثيوبية وتقول :

- أنا المسيحية أحقّ بهذا الخواجة منك !

- صديقه الأسمر قبطيٌّ مثله يا عبيطة. . !

لم آبه لمناكفات بنات الليل وشياطينه. هتف «سليم» بي من جديد:

- لا تضع الوقت . . إذهب مع «ألمظ» وستجد ما يبهرك. .

- نعم . نعم . سأذهب معها. .

لكن بلا استئذان صحا الرّاهب الذي في داخلي وقال لا..! إضطربتْ خطواتي. صحتُ في تردّدي ذاك أخفي خشيتي من تجربة لا أعرف عواقبها :

- لا . لا. سأنتظرك هنا يا «سليم» . . لا أرغب في هذا الشيء الذي تدعوني إليه. . !

لم يعرف «سليم» كيفَ يتصرّف إزاء تردّدي، لكنّهُ أسرع وراء جسد «حليمة» المترجرج، ولم يلتفت لهواجسي . قلبتْ «ألمظ» شفتيها وانزوتْ بعيداً عنّي وغمغمت:

- خواجة ؟ خواجة مزيّف. . !

يسكن في جسدي راهبٌ إسمهُ «سِمعان»، جاء مهاجراً من بلدته «قِنا» في صعيد مصر قبل عقود ضاربة في القدم. خرج من بيته الأول هناك، واستقبله بيت آخر في «مدينة التراب». . تردّد في الدخول، لكنه ولج في النهاية واقترن ببنت الأسقف. لم يبرح تردّده برغم ذلك. المختلفُ يبقى مختلفاً كمشيئةِ الأقدار .

بعد أن قضى وطره من «حليمة»، سخرَ منّي صديقي «سليم» :

– متى تترك خجلك هذا وتلحق بنا . . وأنت الآن قد بلغتَ مبلغ الرجال. . ؟

كيف أشرح له قصة الرّاهب الساكن في بدني . كيف . . ؟



1972 : هلوَسَاتُ واعتراف ...

حينَ التقينا في مبنى الإدارة في «شارع الجامعة»، قبالة المبنى القديم لمكتبة جامعة الخرطوم، نظرتْ إليّ «زينبُ» مستعجبة لما بدا عليّ من علامات لم تكن تعرفها عنّي، على أيامنا في «حَيّ المسالمة» الذي نشأنا فيه، وتلاقينا في بيوته وطرقاته. ربّما هو حرص منّي على أن لا يلاحظ رفاقي في الصفّ الجامعي، أنّي على علاقة خاصة بالحسناء القادمة من «حَيّ المَسالمة»، حي الأسر الميسورة في المدينة الترابية «أم درمان»، بملامحهم الدقيقة وبشرتهم الحنطية، تميّزهم عن بقية سكان المدينة الترابية.

«زينب». . «زينب الشقيلي».

كانتْ تطلّ علينا دائماً، وهي تتهادى من مباني سكن البنات في الجامعة، بفستانٍ طويل مُحتشم، ولا تلفّ بدنها مثل بقية الطالبات، بالثوب السوداني الباذخ في طوله، مثل السّاري الهندي، بل تكتفي بفستان يصل إلى ما تحت الرّكبة ووشاح تتركه ملفوفاً على عنقها. لكن بعد قليل جهد لتسقّط أخبارٍ من هنا وهناك، يتبرع بها من لا شاغل له غير مُعابثة الصبيّات الجميلات، عرف الطلبة أنّها من «حيّ العمدة» وليست من «حيّ المسالمة»، وإنْ وَشَتْ سحنتها بغير ذلك. بنات «المسالمة» تقترب سحنتهن من سحنة البنات الشاميّات وربما كنّ شاميّات بالفعل ومعظمهنّ مسيحيّات، أما «زينب» ببشرتها القمحية، فهي مُسلمة

وليستْ مسيحية. يجري النهر السماويّ من منابعه الجنوبية، عند مرتفعات أفريقيا الاستوائية، من بحيرة «فيكتوريا» وسمّوه «النيل الأبيض»، فيما ينحدر شريانه في جانبه الشرقي من مرتفعات الحبشة، وسمّوه «النيل الأزرق»، كأنّهُ يصنع من جغرافيته، تلك الفسيفساء اللونية، تلك السُّمرة السودانية خطفاً من لونين، تُميّز ساكني جانبي النيل شرقه وغربه. قرأتُ كثيراً في مكتبة عمّي عن النيل وتاريخه. تقول كتب التاريخ عن البلاد إنّها «أرض الذهب»، وللذهب لونه الجذّاب. لونُ «زينب» هو خليط من لون العقيق السّاحر، ولون الحنطة في طلعها الشَّهيّ.

حين ينظر رفاقي في الجامعة إليّ وأنا معها، يتضاحكون مِن حولي ويتغامزون، وأكاد أسمع همسهم وتعليقاتهم الساخرة :

– البيضاء مُسلمة وكأنّها من «حيّ المسالمة»، والأسمرُ مسيحيّ كأنه من «حيّ العُمدة». .هذا زمان التناقضات !

لا تهمّني مثل هذه التعليقات المزعجة، وإن كنت ألاحظ أنها تضايق «زينب» على نحوٍ لمْ يخفَ عليّ. لكن قدر «النيل الأزرق» أن يُلاقي «النيل الأبيض» هنا، عند «المقرن» الجميل، فيتخلق من تمازج الطبيعة وتصاهرها، نهراً خالدا إسمهُ نهر النيل. . ولكن هل للطبيعة تحوّلاتها كما للبشر، فيتخلق التاريخ من رحم جغرافيتها. . ؟

«أم درمان» في الثلاثينات التي عاشها جدّي، لا تختلف كثيراً عن «أم درمان» بعد أكثر من أربعين عاماً، هي مسافة قطعتُها أنا بين الغفوة واليقظة، وطافتْ بي أحلام وأطياف وخيالات.

رأيتُ مثلما يرَى الحالمُ أضغاثَ رؤاه، جدّي «بطرس ميلاد» في أسعد حالاته، حين طلب منّي أن أجلس قبالته ليسمعني شيئاً ممّا نظم من شِعرٍ غزلي، في بعض صبايا «حي المسَالمة». تلفّت حوله وكأنّهُ يتوجّس من شيءٍ ما، أو شخصٍ ما .

– «عزيز». .أنصِتْ يا بُنيَ. صغير أنت لكنك ستفهم ما أعني . سيأتي يومٌ تتذكّرون فيهِ أيامنا هذه . تتذكرون كلّ الذي مررنا به، مِن عنتٍ ومن عذابات، ولكنّا نجحنا في بناءِ قصورٍ للفرح، وشيّدنا بيوتاً للسّعد. صديقي «صالح» شاعر أم درمان الشهير، يحذق مجاراتي ولا ينظم قصيدهِ إلا بعد أن يترصّد قصائدي في «أمّ السّعد»، ويمازحني أنّ مرادي منها أبعد من نجوم السماء. . هل أسمعكَ قصيدتي في «أمّ السّعد» ؟

أدهشني الإسم، فأنا قد سمعت من عمّي «جريس» ابن الشاعر «بطرس ميلاد» عن «أمّ السّعد»، أنها امرأة مشهورة بجمال ساحر من حِسان بيت «الشيخ حسَّان» وهو صهر لآل «الشقيلي»، والمرأةُ مُسلمة عرفها الناس في حيّ «المسالمة» في ثلاثينات القرن العشرين وأربعيناته، وجدّي الذي علِقَ إسمه بها هو«بطرس ميلاد» نفسه، شاعر مفوّه وأرثوذكسي قح، تتناقل الألسنُ قصائده، قبل أن تنطلق من حنجرة «زنقار» أو «كرومة» أو «الحاج محمد أحمد سرور». لم تكن «فيكتوريا»، «ظبية المسالمة» فتاة من خيال شاعر، ولا كانت «أمّ السَّعد» في حيّ «العمدة» معشوقة افتراضية، بل كلتاهما فتاتان من لحم وشحم وعذاب .

- «أمّ السّعد» يا جدّي ؟ أليستْ هي بنت الشيخ. . . . ؟

لم يدعني جدّي أكمل استفساري، وعاجلني قائلا في هدوءٍ، وبكلام واضح كأنهُ اعتراف يردّده أمام قاضٍ سيفصل في شِعره الغريب، وفي محبوبته الفاتنة، وينتظر أن يحكُم بإدانة أو براءة .

- هيَ مُناي وسعدي ! علمتُ من المغنّي «كرومة» أنه سيغادر إلى القاهرة لتسجيل القصيدة على اسطوانة ، تخلّد شعري في تلك الفاتنة . .

ورفع عقيرته ينشد قصيدة بالشِّعر العامّي، من عصما واته الخرائد:

- «كم نظرنا هلال ، ما شاقنا غيرَ هلالو..»

ما تمالكتُ نفسي، وصحتُ بريَّبي في وجههِ :

- هوَ هلالُ المسلمين يا جدّي. . أيسلب لبّكَ وأنت شيخُ النّصارى في الحيّ . .؟

- لا . لا يا بُنيَ .. نحن لا نقيس سموّ الشِعر الغزلي بمعيار أمكنة العبادة. هلا سمعتَ قول الشاعر الشاب «التيجاني يوسف بشير»، المتصوّف ابن «الكتيابي» من قلب «أم درمان»، ينظم قصيدة شهيرة يقول فيها :

آمَنتُ بالحُسنِ بَرْداوبالصَّبابةِ نارا

وَبالكنيْسَةِ عِقداًمُنضّداً مِنْ عَذارَى

وَبالمَسيحِ وِمَنْ طافَ حَوْلهِ واستجارا

إيمانَ من يعبدَ الحسنَفي عيونِ النّصارَى

سمعنا أنّ الحسناءُ التي تغزّل بها الشاعر «التيجاني»، هي من بنات آل «جوّاد» الشّامي اللبناني وهو من الروم الأرثوذكس. كان الرّجلُ موظفاً في مكتب بريد أم درمان المركزي، ولزوجته الشامية الحسناء معجبون، ناهيك عن كريمته اليافعة الجميلة. العشق في كل تجلياته، قاتلٌ يا بُنيَ. مات «التيجاني» في عزّ شبابه، وقصائده شهاداتٌ ماثلة لتسامح الفطرة في «حيّ المسالمة» و«حيّ الركابية» و«حيّ العمدة». . !

واستعجبتُ لجدّي «بطرس»، مثلما استعجبت من مجايليه من شعراء تلك السنوات القديمة. لا يسأل الشاعرُ منهم، ما دين فتاته ولا جنسها، بل تتنزّل القصائد وَتَعبُر في جمالياتها، إلى أفقٍ من التوادد والتسامح. تطلّع جدّي بلطفٍ إليّ ، ثمّ قال يحدثني بعبارة واضحة :

- الشِّعرُ لا دين له يا بُنيَ. . ! «جوَّاد فارس» شاميٌ من أصول لبنانية من «ضهور الشوير». كان والده مجنّداً في جيش «كيتشنر»، لكنّه عمل- بعد أن ترك الخدمة العسكرية- في إدارة الحسابات في مصلحة البريد في «أم درمان». . استقرّ في «أم درمان»، وآثر أن يبقى فيها، فصار عيناً من أعيان «حيّ المَسَالمة». راقتْ له السُكنى بين مسيحيّ «المسالمة» ومسلميها.

ثمّ تتهاوى رؤاي مثلما يتهاوى الشّهابُ، والـزَّمن يعـابثني بـين مـاضٍ سـارِبٍ لم أشـهده وحاضـرٍ مُستخفٍ، لا أعرف كيف أعيشه، ومستقبل ضائع في رحمِ الغيب. .

ضمّتنا «قهوة النشاط»، مُلتقى الترويح في جامعة الخرطوم، في نهارٍ قـائظ، وأشـجار النّـيم لا تكاد تمنح ظلّها إلا على خجلٍ وعلى بخلٍ، يحتمي بها الطلاب من كليّات علمية وأدبيـة، يقفـون ولا يجلسون لمطالعة الصحف الحائطية، ويأخذهم الجدال محتدماً بينهم، إلى ما يشبه الحـرب الشعواء. . أما شجرة الجميزة العتيقة، فهي ملاذ «عم السّر» المُريح، يدير منها مقهى النشاط مـن على كرسيه الوثير، مُخفياً بدنه المترهّل تحت جلبابٍ أبيضٍ واسع، وعلى فمه غليـونٌ لا يفارقـه ، فيما «حمُودة » حلاق الجامعة ، يعابث «عم السِّر»، ويرسل قفشاته مـن محلـه في ناصـية المقهـى بصوتٍ يصل إلى مسمع الرّجل. لا يجالس «عمّ السّر» و«حمودة» إلا كبار الطلاب، والذين هم في الفصول النهائية. نظل نرقب مـن بعيـد هـذا المسـرح الحـيّ، وهـو بـلا شـكٍ أشـد جـذباً مـن محاضراتنا وأكثر امتاعاً.

«زينبُ الشقيلي» برفقتي وبيننا أكوابُ الشاي. لم ننشغل بصحف الحائط وقد حملتْ مانشـيتاتها عبارات مثيرة من تيار اليسار المتحفّز، وأخرى مستفزة من جماعة الاتجاه الإسلامي.

– هل أخبرتك أنّ عمّي «جريس بطرس ميلاد» يدعونا لجلسـةِ اسـتماع ننصـت فيهـا لغنـاء «الحقيبة» القديم. .؟ سيخرج لنا عمّي كنوزه القديمة: غناء الثلاثينيات من شعر جدّي «بطرس». أسطوانات حجرية قديمة لمغنيين اشتهروا في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين .

– حسناً . . ستكون أمسيةً مُمتعة مع الأعزبِ الأنيق، وعن الزمن القديم. . !

لطالما سمعتها تُمازح عمّي «جريس» وأفرح لتبسّطها معه. كانت تشكّك في كون جدّي «بطرس» هوَ شاعر هذه الأغاني الجميلة، أما أنا فكنتُ أمامها محضَ حالمٍ تعبث به الوساوس، عن جدٍّ غادر الدنيا منذ عقدين من الزّمان، ولا يكاد يتذكر اسمَهُ أحد. حملقتُ في الفضاء مِن حولي، فيما تطلعتْ «زينبُ» إلى صحفِ الحائط بألوانها المثيرة . همسَتْ في ضيقٍ بيّن:

– لا أرتاح لما يكتبه طلاب جريدة «آخر لحظة». . مناكفون ويناوشون الآخرين وكأنهم جُبلوا ليكونوا وقوداً للمعارضة، ولا مطمح لهم إلا معاكسة الآخرين !

لم أردّ عليها، وإنْ كنتُ أعلم أنَّ في الجانب الآخر، يساريين لهم ألسنة حداد ويدبّجون المقالات النارية ضد مُناصري جماعة «الاتجاه الإسلامي»، كما يَنظِمون الشِعر غيرَ التقليدي، ويزيّنون صحيفتهم الحائطية بأقلامٍ متفائلة، كأنّ حبرَ كتابتهم معصورٌ من أوراق الورد ومِن فوح الياسمين. لم يطلقوا «مساء الخير» اسماً لصحيفتهم اعتباطاً، فقد كانت تحمل وعداً بمستقبل جديدٍ حالمٍ، وبأيامٍ حبلى باخضرارٍ قادمٍ وشِعرٍ خلاب. كانت قيادة البلاد ساعتئذ، بيد ضباط شبّان تتدلى من خصورهم مسدساتٌ وفوق أكتافهم نياشين حمراء وصفراء لامعة، ويتكلمون عن نوايا لتغييرٍ كاسحٍ سيقومون به في البلاد، بصرامةٍ قاسية ورباط جأشٍ مثير.

تلك هيَ السنوات الأخيرة من ستينيات القرن العشرين، وقد عشتها بأحزاني وأفراحي وكانت حبلى بدعاوى القومية والإشتراكية، من حولنا، بل وفي شتى الأنحاء والبقاع البعيدة. اهتزتْ مجتمعاتٌ كثيرة لثورات الطلاب وتململ الشباب وضيّقه من أنماط الحياة، ونحن في سنوات الحرب الباردة، نستشعر حرارتها ونعجب للتسمية المموّهة. الغناء اليساري عندنا في «أم درمان»، يتصاعد عالياً في الحواري والطرقات، لسنوات طويلة تلتْ. «ثيودوراكيس» الموسيقار اليوناني الذي صاغ موسيقى فيلم «زد» الشهير، يحلّ بالخرطوم ليشهد العرض الأول للفيلم في الخرطوم. شهدنا العرض برغمِ الزّحام وكانت «زينب» رفيقتي في تلك الأمسية بسينما «كولوزيوم». تسللتْ هيّ من سكن الطالبات وانسحبتُ أنا مفارقاً رفاقي ومضيت راجلاً عبر شوارعٍ إضاءتها خافتة وشبه خالية من المارة. وصلتُ إلى «شارع القصر» وانتظرتها في بوابة دار سينما «كولوزيوم». .

أيامٌ لها وقعٌ بديع، وللحياةِ طعمٌ حلو، وللرفقة مذاقٌ معسول.

حينَ بدأ عرض الفيلم، وقد لفَّنا الظلام، تسلّحتُ بجرأة لم أعهدها في نفسي، واختلستُ من حبيبتي «زينب» قبلة سريعة خاطفة على خدّها .

قتلتها المفاجأة. همستُ في ارتباكي:

– إنها ليلة «زد»، حرف الحرية والإنطلاق. .«ثيودوراكيس» العظيم يشهد الآن قبلتنا الأولى يا «زينوبة». .

فيما شغلها ارتباكها، أعترفتُ لها أنّي غريقٌ في بحر عشقها متيمٌ. .



شاعرٌ لا تعرفه العاشقة ..

صارَ لأيامنا في الجامعة طعمَ العشقِ المعسـول. اسـتدنيتُ قلـب «زينـب» فراقـتْ لي أكثـر، وتلاقت اهتماماتنا ، فكانت لوحةُ العشق محتشدة بألوانٍ قزحية خلابة.

قلتُ ل«زينب» وَنحن في خلوتنا المألوفة في «مقهى النشاط»:

– أجد نفسي يا «زينب» في حركة «أبادماك» الثقافية . .

– هؤلاء جماعةٌ من اليساريين الخجولين، ممّن يتوسلون لنيل ثقة الطلاب عبر بوابات الثقافة، واستلهام التاريخ القديم في إبداعِ مسرحي معاصِر. .

– إنّي ضعيفٌ أمام التاريخ يا عزيزتي. ألا يكون «أبادماك» هذا إلهاً من آلهة أجـدادي القـدماء في الشمال منذ بدايات التاريخ ؟

تضحك «زينب» وتغمز لي بسؤالها اللاذع :

– يعجبني يا «عزيز» اعتدادك بأهلك الأقباط القدماء. . أليسوا هم من نسل الفراعنة. . ؟

– أجدادنا سكنوا وادي النيل وشيّدوا حضارات باهرة. . قد يكون «بعنخي» هو فرعون وادي النيل الأسمر. وقد يكون «ترهاقا» هوَ جدّنا المشترك يا «زينب» !

لـ«زينب»- برغم نُعمَى المحبّة بيننا- آراءٌ سياسية مدهشة، تعجبني بعضها ويغيظني أكثرهـا. ولأني سبقتها إلى الالتحاق بجامعةِ الخرطوم بعامين، فقد كنتُ أكسب جولات الجدال معها بغير عناءٍ، فأردّ إليها حججها التي رأيتها فطيرة، مسنوداً بأعوام نُضجٍ عجمَتْ عودي وقوّت حججي، ولكن في نهاية الأمر، تغلبني محبّتي لها. لا أعرف كيف أغيظها مثلما تتعمّد هيَ إغاظتي، فتسود لغة الود ونتناسى اختلافاتنا الصغيرة .

جلسنا وبيننا أكواب القهوة وقناني الكولا، ومـا فتئـتْ تبثنـي مـن مشـاعرها مـا لا يصلـح أن تحمله اللغة، أو ترسله سِراراً ألحاظُها الجميلة. . هل تعمّـدتْ إغـاظتي حـين نـاكفتني بأنهـا لا تعرف شاعراً إسمه «بطرس»، وهو جدّي الذي كنت أحسب أن أم درمان كلها تعرفه. . ؟ كيـفَ لم تسمع حبيبتي عن جدّي «بُطـرس مـيلاد» وقصـائده البديعـة، لـيس في بنـات حـيّ «العُمـدة» فحسب، بل في مناسبات المسلمين في «أم درمان» وفي كلّ أعيادهم. . ولكـن هـل يكـون ذلـك بسبب انتمائه لمِلّة لا تلتقي مع ملّتها ؟

- هل جدّك هذا من عظام الشعراء. .؟ لا تلمني إن لم أسمع عنه من قبل. . !

- ستسمعين قصصه عند عمّي «جريس» فلا تستعجلي. الجمعة القادمة ستكون جلسـتنا عنـد عمّي وسننصت لشعرٍ كثيرٍ من نظم جدّي، وستسمعين أغاني مطربي «الحقيبة» القدامى، يتغنّـون بقصائده. .

كانَ صالون عمّي «جريس» ساحة عشقنا الخجول، وتوثّقت علاقتي بها ونحن نتجادل حـول كتابـات «توفيـق الحكـيم» وروايـات «نجيـب محفـوظ»، وقصـص «إحسـان عبـد القـدوس» و«محمود تيمور» و«يحي حقي» وأعمال «فتحي غانم» الروائية. قالـت لي، وكأنّهـا تبحـث عمّـا يميّز مزاجها الأدبي:

– يحرّك ذهني «توفيق الحكيم» في مسرحياته الفكرية، أكثر ممّا يفعـل «نجيـب محفـوظ» في رواياته !

– لو طلبتني أن أعينك وأدلّك على كاتبٍ في مكتبة عمّي، ستحبين كتاباته، لقلـتُ لـكِ اقـرأي «إحسان عبد القدوس» !

كنتُ أعرف كيف أثير حماسها وكيف أورّط عواطفها في روايات «إحسان عبد القدوس» التـي راجت في تلك السنوات، فألاقيها في إحدى منعطفاته. .

أواخر ستينات القرن العشرين، كنا في الجامعة نشهد حراكاً سياسياً جارفاً، ولم نكن بعيدين عن التفاعل بحراك الطلاب في أنحاء العالم. كنا نتابع ثورات الشباب في أوروبا، وقد احتدم الصّراع بينَ جيلٍ كان يقبض على الأمور بيدٍ قوية بعد الحرب العالمية الثانية، وجيلٍ جديدٍ متفتحٍ، عينه على تحقيق تغيير كبير في السياسة وفي الفنِّ وفي الحياة. الصراع بين اليمين واليسار، كما الاختلاف بين ليلٍ ونهار، شمسٌ في خسوفها تجاذب قمراً في كسوفه. دلفنا إلى مدارج مصارعة وتناقضات لا تحد. جدّي الشاعر «بطرس» من ذلك الجيل الذي غادر قبل اشتداد الصراع.

يوم الجمعة . .

جلستنا مع عمّي «جريس». جاء صديقي «ميلاد» قبلي. «زينب» لم تأتِ بعد. فيما استجمعتُ قلقي ، رأيتُ عمّي مُنشغلاً يراجع بعض أوراقه في مكتبته تلك. خطر لي أن أتحدث في أيّ موضوع، يخرجني من قلقي، ولم يدر بخاطري أنّ حديثاً ابتدره بلا حيثيات ، يمكن أن تكون له تبعات تشكل قدراً لاحقا ينتظرني في منعطف بعيد. .

قلت لعمّي:

– هل تدرسون في وزارة الخارجية تداعيات الصراع الدرامي بين جيل الحرب العالمية الثانية وجيل ما بعد الحرب ؟ هل سيرث اليسار، ونحن في النصف الثاني من القرن العشرين، أمور العالم في ظنّك . . ؟

نظر ملياً إليّ ، وعِوَضَ أن يجيبني ، قال:

– «عزيز». . إنْ كانت تستهويك السياسة، لِمَ لا تركّز في دراستك الجامعية منذ الآن على اللغات والعلوم السياسية، لتلتحق بالسّلك الدبلوماسيّ ؟

كنتُ أظنّ أنّ عمّي يمزح ، أو هو يتهرّب من الإجابة على سؤالي.

– ليس بالضرورة يا عمّ ! إنّي أتابع ما يفعل «داني الأحمر» في أوروبا، مثلما أتابع حروب العصابات ضد القوات الأمريكية في «فييتنام»، فيما يقبل محمد علي كلاي أن يقبع في السجن لرفضه القتال في فيتنام. . أو مثل متابعتي حروب العصابات التي يشنّها في أمريكا اللاتينية وفي الكونغو، «تشي جيفارا». في جانب آخر، هنالك كتابات الفيلسوف الفرنسي الشاب «ريجيه دوبريه». قال لي عمّي إقرأ كتابه «ثورة في الثورة»، ففعلت. إنّي أرى العالم يمور بثورة ستحقق تغييراً كبيراً، لا شك سيصلنا رأس السّوط، بعده. . !

أضفتُ في تعالٍ مزيّف:

– هل في اهتمامي هذا ما يؤهلني بالفعل للحاقِ بكم في السلك الدبلوماسي. . ؟

لمْ تكن لعمّي رغبة في الدخول إلى جدالٍ سياسي، أعرف أن «دبلوماسيته» لا تشجّعه عليه، لكن لمستُ حرصه على تشجيعي للدخول إلى عالم الدبلوماسية. مكتبته مليئة بكتابات فكرية عن اليسار الأوروبي، ولكن لم نكن نعرف عنه ميلاً إلى يسارٍ أو إلى يمين، أو ربما نجح بدبلوماسيةٍ في طبعه، في إخفاء ميوله عنا. أرففٌ كثيرة حوَتْ كتابات ل«فرانز فانون». ثمّةُ رفٌ كاملٌ احتوى على كتابات «جان بول سارتر» و«البير كامي». «أنطون تشيكوف» و«أوجين أونيسكو» في حيّز خاص، بين مجلدات عن الاقتصاد السياسي، وأخرى في علم الإجتماع السياسي والديني. روايات إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ، كتب سيّد قطب وطه حسين والعقاد ومحمد حسنين هيكل، ومؤلفات باللغة العربية، إحتلّتْ مكاناً وسطا. أناجيل عديدة تقع عليها عيني، وطبعات مختلفة من المصحف الشريف . لا يرى عمّي غضاضة في حفظ نسخ من القرآن في مكتبته.

نظرتُ إلى ساعة الحائط . إنها الرابعة والنصف بعد الظهر ولم تظهر «زينب» بعد.

– لا مكان للشِّعر في مكتبتك يا عمّي !

كنتُ أمازح عمّي دائماً، ويطرب لمزاحي حين أذكّره بجدّي الشَّاعر «بطرس».

- «بطرس» أبي. . ؟ آه. . يكفينا في الأسرة شاعرٌ واحدٌ فخم !

رأيته شاخصاً من حيث لا أعلم، يلوح مثلما تلوح الشخوص في أحلام النائم . جدّي « بطرس». هو بعينه. لا أحد غيره . سألتُ عمّي «بطرس» :

- ألا تحكي لنا عن جدّي «بطرس» . .

- اسمع يا «عزيز» شيئاً من قصته. . حينَ كنت أسأل أبي «بطرس» عن القصائد هل تتنزّل من سمواتٍ عُلا، يضحك ويقول لي: «أنا في أمسّ الحاجة لمحفّزات، هيّا أسرع إلى صديقنا الأرمني عمّك «حاجوغليان»، واجلب لي زجاجة من الخمر المخصوص، هوَ يعرف مزاجي وأيّ نوع أحبّذ. هيّا أسرع. .!« كنت في الثانية عشرة من عمري، ولكن كنا أكثر وعياً منكم وأنتم في تلك السن. بعد كأسٍ أو كأسين، تتنزل القصائد من لسان جدّي «بطرس».

صديق جدّي الذي يدير خمَّارة في ناحيـة «شـارع غانـدي» شـرقي سـوق «أم درمـان»، إسـمه «أبوللو حاجوغليان». سودانيٌّ جاء أجداده الأرمن قبل مجيء أرناؤوط «محمد علي باشا الكبير» إلى السودان، هاربين من مصر قبل عقود طويلة. مؤامرات السياسة في القاهرة، دفعتْ بـالكثيرين من الأرمن واليونانيين، أفراداً وجماعات وبقايا الجنـود مـن المماليـك والأرنـاؤوط للقـدوم إلى السودان وعدّوه ملاذهم الآمن . هذه بلاد الحـرارة العاليـة والقـيظ اللاهـب. بـلادٌ صـحراؤها تحرق، ورجالها أجلافٌ غلاظ لا يرحمون. ترتاح القـاهرة لـو هـرب مـن يضـايقونها إلى جحـيم السودان، والمماليك رهطٌ ضاقتْ عليهم الدنيا إلا بلاد السودان، فنزحوا إليها يختبئون في أرضٍ حرارتها المستعرة هي من حرارة الجحيم، وجفافها خانق منفّر، ولكنهم استقرّوا فيها فصـارت لهم وطنا.

في «أم درمان» يفتخر «أبوللو حاجوغليان» أنّ ما يَعصِر مِن نبيذٍ، هو من نتاج بيته مـن أعنـاب مستوردة، ولا يضيف عليها شيئاً، مثلما يفعل بعض المصريين الذين يديرون حانـات وخمّـارات المدينة. لجدّي «بطرس» ثقةٌ عمياء في نزاهةِ خمّاري «أم درمان»، فصناعتهم لا غشّ فيها. .

يضحك جدّي فتبين أسنانه المتهدِّمة، ويقول لي مُعابثاً :

– الفضل في أكثر قصائدي، يعود لخمرِ العجوز «آبوللو» المُعتقة. . !

ما أمتع حكايات جدّي «بُطرس»، يحكيها لي ابنه، عمّي الدبلوماسيّ «جريس» .

قال لي عمّي «جريس» وهو يداري ضحكة غلبتهُ :

– لربّما لم تكن تعرف أن ل«أبوللو » هذا ، زوجة أم درمانية، أصولها من جبال النوبة ، تزوجها على سُنةِ «كنيسة القديسين» وإنجيلها. برعتْ زوجتهُ في صنع النبيذ المُعتق، كما نجح «أبوللو» في أن يبني بها بإخلاص، فاستولدها بنتين وصبياً واحدا وجمع ربحاً وافراً من خمّارته تلك، فصار من أبرز أعيان سوق «أم درمان»، لا ينازعه أرمنيّ آخر، حتى أواخر سنوات الخمسينيات . . !

– ألأرمنّي صار له أبناء من جبال النوبة إذن. . !

– ليس أرمنياً فحسب، بل هو من الأرثوذكس. . والده قدم إلى السودان منذ السنوات الأولى لحكم «التركية السابقة» الاستعماريّ في السودان، وشهد طرفاً من حكم الخليفة «التعايشي» في دولة «المهدية الإسلامية» التي قضتْ على حكم «التركية السابقة» في سنوات القرن التاسع عشر الأخيرة. لم يغادر «أبوللو» هذه البلاد إلى وفاته، وستروا جثمانه في مقابر النّصارى القديمة في «أم درمان». .

- وأينَ أولاده الآن. . ؟

- بعضهم هاجر إلى مدينة «الأبيض» حاضرة «كردفان»، وبعضهم غرّبَ أكثر وأقام في «الجنينة»، أقاصى مديرية «دارفور» على حدود «تشاد» والسودان الفرنسي. . «فندق آبوللو» في قلب الخرطوم يديره أحد أحفاده الأثرياء، الذي نجح، وهو المسيحي الناشط في رعاية الكنيسة الأرثوذكسية، في عقد تحالفات مع بعض الإسلاميين القريبين من دوائر الحكم، فضمن لاستثماراته السلامة والأمان.

- ألا تراها انتهازية يا عمّ. . ؟

نظر عمّي إليّ شذراً وتجاهل الردّ على تساؤلي.

أدرتُ نظري إلى ساعة الحائط. لم تأتِ «زينب» والساعة قد تجاوزت الخامسة مساء. صديقي «ميلاد» الذي كان منهمكاً في تصفّح كتاب «السيف والنار» لسلاطين باشا، لاحظ قلقي وتوتري، لكنّه آثر أن لا يعلق. ترك الكتاب ودعا عمّي لأن يواصل سرد قصص جدّي الشاعر«بطرس ميلاد سمعان».

- كنا نطمع أنْ نسمع أكثر عن ذلك التاريخ الذي كاد أن لا يتذكره أحد. . سمعنا أنّ لمحله في وسط سوق «أم درمان»، دوراً في نشاط الوطنيين. . أليس كذلك؟

فيما واصل ترتيب أوراقه، أجاب عمّي على سؤال صديقي «ميلاد» بصوتٍ رتيب، وكأنه يقرأ من كتاب:

– أجل. . كانت خمّارة «أبوللو» التي تجاور محل «أنطون شرقي» في سوق «أم درمان»، مَعلماً بارزاً ومهمّاً، وكانت ملتقى لنخبةٍ من المتعلمين من خريجي كلية«غوردون». لم يكن محله خمّارة فحسب، بل منتدىً يجتمع فيه هؤلاء المتعلمون يتدارسون أحوال البلاد ويتحدثون في الأدب والسياسة. يتوزّعون بين محله ومحل «أنطون شرقي»، يحتسون الشاي والقهوة حتى ساعات العصر الأخيرة، وفي آخر الليل يعاقرون أنواعاً طيبة من الخمور والنبيذ، على أنغام فونوغراف عتيق، باسطوانات حجرية عليها أغاني لمطربٍ مصري شاب اسمه «محمد عبدالوهاب»، ومطربة شابة إسمها «أم كلثوم»، وبعض أسطوانات عليها أغاني مسجلة للمغني السوداني «كرومة»، ولآخر إسمه « الحاج سرور». .

تنفّس «ميلاد» وهتف وعينه عليّ:

– يا له من تاريخ !

يستطرد عمّي في حكايته:

- ضمّ منتدى والدي «بطرس» ، أواخر سنوات الثلاثينات وأوائل الأربعينات، رهط متنوّع من المتعلمين ومن موظفي الحكومة. بينهم «زاهر إسماعيل» معلّم الرياضيات في كلية «غوردون» وقد صار من كبار زعماء الاتحاديين في البلاد، وصديقه المهندس «الهاشمي» وهو من قيادات «حزب الأمة» ومن المقرّبين للإمام عبد الرحمن المهدي، وهنالك الطبيب «أبو سيفين» والباشكاتب «حسين الشايقي» والشاعر «أحمد صالح الشنيطي»، وأسماء رجالٍ آخرين لم أعد أتذكرها .

- هذا خليط متنافر من الناس . . كيف ضمّهم مجلس واحد. . ؟

يرتاح عمّي لمثل هذه المداخلات، إذ تفتح شهيته أكثر للسّرد والحكي .

قال مستجمعاً خيوط الحكاية :

– هنا للتنافر عبقرية ! يخرجون من عند «شرقي» وفيهم مَن رأى في مصر الحليف الذي يوثق به، ومنهم مَن رأى الخير كله في التقارب من الإنجليز. حتى في رياضة كرة القدم: وقف بعضهم مع فريق «المريخ» ورهطٌ منهم ساند فريق «الهلال». مِن مثل هذه المنتديات، وعبر هذه الرؤى المتناقضة في الثقافة والسياسة والرياضة، تبلوَرَتْ فكرة تنظيم المقاومة الوطنية «للحكم الثنائي»، البريطاني المصري. إلى مثل هذه المنتديات يتداعى موظفون في الحكومة وطلابٌ من «كلية غوردون التذكارية»، فكانت ساحة تجمع الوطنيين، وقد وُلدتْ مِن رحمِ هذه المنتديات فيما بعد، تيارات أدبية وفرق رياضية مهمّة ولكن أيضاً «مؤتمر الخريجين» الذي أزعج الإنجليز، أواخر سنوات الثلاثينات، حتى أقرّوا اتفاقية الحكم الذاتي عام 1953، وتهيأوا بعدها للخروج من البلاد. .

طرقاتٌ على باب منزل عمّي. أخيراً وصلتْ التي ينتظرها قلبي.

جاءتْ «زينب» في حلّة زاهية. جلستْ إلينا واعتذرتْ عن قدومها متأخرة بسبب زوّارٍ جاءوا إلى عمّها «صدِّيق».

– دائماً يزعجنا عمّي بضيوفٍ يأتون بلا سابق إخطار، يربكون برنامجي معكم كل يوم جمعة .

.

إلتفتتْ إلى عمّي مُمازحة :

– قال لي «عزيز» أن جدّه شاعر كبير ومشهور ويتغنى بقصائده مطربو أم درمان. .

ابتسم عمّي «جريس» ، مضيفاً:

– نعم شاعر كبير وكبير جداً، ومشهور مشهور جداً، ومزواج مزواج جداً. . إنه والدي «بُطرس سمعان». . !

ونعمنا بعد ذلك بساعات من المتعة في الاستماع للأغاني السودانية القديمة ولقصص أغنيات « الحقيبة»، إذ لكل أغنية قصة حقيقية تدور حول فتاة من «حيّ العمدة» أو «حيّ المسالمة » أو «حيّ العرب» .

– إذاَ جدّك «بطرس» كان بالفعل نابغة شعراء تلك المرحلة. . ؟

إلتقتْ عيناها بعيني وشملنا وهج المحبة بضيائه، وهمستُ:

– سأكون شاعرَكِ يا «زينب». .



الهجرةُ جنوبًا ...

، بغيـر قصـدٍ ولا

ترتيب مُسبق، جزءاً منها بل طرفاً لا ينفصل عن تفاصيلها. لا أعـرف إنْ كانـت ذاكـرتي تسـتعيد صوراً قديمة، أم هوَ الواقع قد تماهَى في أحلامي ورؤاي! وقفتُ أمام محل جدّي «بُطرس ميلاد سمعان» وأنا في سِنِّ السابعة، يحرّك طفولتي حبُّ اسـتطلاع غريـزي، في ذلـك الصـباح البـاكر،

وسوق «أم درمان» خالٍ من المتسوّقين، لكن تصايح بائعي الخضـر والقصّـابين، يرتفـع بمـرور الوقت. تتواتر الصّور كأنّ الحلم استحال حقيقة أمام عينيّ، أو لعلّ الحقائق خرجت لي عياناً من أحلامي، وأنا في إغفاءة لا حدود لها. توغلتُ في أحلامي وتهيؤاتي ولم أعُد أعرف أيُّهـا أضـغاث، وأيُّها متون في ثنايا الواقع الماثل. تداخلتْ الأعوام تتابعاً وتقافزاً، وانمحتْ ألوانها. فركتُ عينـيّ بلا جدوى ، وعاد البصرُ ملتبساً حسيرا.

كنتُ أرى جدّي، ماثلاً أمامي حيّاً، في فتوته وفي عنفوان شبابه. كان في مثل سـنّي الآن، لكنـه هو ذلك الجدّ المُثقل بسنواته القديمة. في خرائبِ الذاكرة، ثمّة أزاهر ناضرة، وورود يفوح منهـا عطرٌ في أفق الوعي الغائب.

طلب مِنّي جدّي «بطرس» أن أوافيه بقهوة الصباح من عند الحاجّة «عيشة»، في ركن الشارع في سوق «أم درمان». لم يتغير إسم الشارع فقد أطلقوا عليه «سوق الموية»، صفوف من المحلات التجارية أمام كلٍ منها فراندا قائمة على أقواس مسقوفة تحجب أشعة الشمس الحارقة، ولا تمنع المتسوّقين من التجوّل والتسكّع بين المقاهي، وإن كانت تلك الأمكنة الضيقة تناسب الانتهازيين من السرّاق والنشّالين الذين يتصيّدون كبار السن والنساء الغافلات. في ساعات الصباح الباكر، السوق على هدوء. للقهوة هنا، نكهة تقتحم الأنف فلا تقاوم، ولكن لسوق المدينة الترابية، رائحة نفّاذة تفوح من أصابع التاريخ ومن أغصان رياحينه.

في مثلِ هذه الجلسات الصباحية، يطيب لجدّي أن يُحدّثني عن قصَص أسلافه القدماء. يحبّ حكايات التاريخ و«سِمعان» القناوي الكبير هو بطلهُ المفضل. ما زال محل صديقه «أنطون شرقي» مغلقاً، وهو الذي يشاركه كذلك، أنسه ونفضَ الغبار عن أضابير تاريخهما المشترك، بلذةٍ لا تضاهيها لذة. يتندران على حال أسرتيهما إبان سنوات «التركية السابقة».

حدّث جدّي «بطرس» فقال:

- سجّل «محمد بك الدفتردار» بعد حملته الانتقامية، عهداً قاسياً في بلاد السودان، لم تكن أقلّ محدثاته، ممّا قد يتصوّره ابن عمه القتيل «إسماعيل باشا»، هذا الذي قضى في حريق «المك نمر» الشهير في «شندي» عام 1823. .

جاء أتراكٌ كثيرون بعد «محمد بك الدفتردار» ولكن لم يمحُ الزمنُ قسوةَ منـتقمٍ جبّـار مثلـه. أصاب الرهقُ أجدادنا الأوائل جرّاء أعماله تلك. وجدوا عنتاً في قبول سكناهم وسط أهل البلد لسنواتٍ تتالت.

كاد جدّي «سمعان» الكبير- وقد جاء بعد حملات الانتقـام بنحـو عشـر سـنوات- أن يعـود أدراجه إلى «قِنا» بعد سنوات الرهق الأولى في بلاد السودان.

كُتبَ لأسرة «شرقي » وأسرة «سِمعان» أنْ تطويا سنوات المعاناة خلال أيام السطوة التركيـة، في سنوات القرن التاسع عشر الوسيطة، تجمّلاً واصـطبارا، فقـد ضـاق الأهلـون في البلـد بكـلِّ سحنةٍ بيضاء تلوح في الأنحاء. يقولون عنهم: «أولاد الرّيف» ويصفون أكثرهم بأنهم يـد الأتـراك الباطشة .

قال «بطرس» مُستطرداً:

– كنتُ قد حدثتك عن جدّك «سِمعان» القناوي الكبير . .

ما الذي جاء بكَ يا «سِمعان» القناوي إلى بلاد السودان لتفارق «قِنا»، وتترك أهلـك وراءك في حيرة. .؟ هجرتَ مصر أم هجرتك هيَ، فيمّمـت شـطرَ الجنـوب وظهـرك إلى «قِنـا ». .؟ أسـئلة تجول في خاطري لا أجد إجابات قاطعة لها .

- كان «الدفتردار» قد أنهَى حملته الانتقامية بعد مقتل ابن عمه «إسماعيل باشا» في ذلك الحريق المدمّر، إذ الحصير الذي حوصر فيه إسماعيل وجنده في حريق «شندي»، كان حصيراً وحصاراً لبلاد السودان، بطوائفها وقبائلها وبطونها في شتاتها اللامتناهي. غضبة «أفندينا محمد علي باشا الكبير» لا تعدلها أيٌّ من غضباته الأخرى، وهو يجاهد أن يجد له ولأسرته، موطأ أقدام في التاريخ .

انفتحتْ شهيّةُ العجوز فانطلق يحكي. كنتُ أسمع صوت جدّي «بطرس»، فكأنه صدى لصوت «سِمعان» القناوي الكبير. من بهو التاريخ تتعالى أصداء الأصوات، تتمازج فلا أتبيّن من يحدّثني منهم ، أهو «بُطرس» أمْ «سِمعان» الكبير. . ؟

(- فتح «الباشا». . «محمد علي باشا الكبير» الباب لمتطوّعين يحتاجهم لتنظيم إدارة البلاد، بعد سنوات الاستقرار التي تلتْ حقبة الانتقام القاسية. طلب محاسبين ومعلمين وإداريين كتبة، وجباة ضرائب. بعد أن أكمل حملته العسكرية، بات جلياً أن البلاد ستستقر تحت حكم الدولة المصرية، والخلافة العثمانية «السنيّة». ترددّتُ لفترة طويلة. ولكن بعد أن ضاقت علينا أحوال البلد بعد عام 1830 ، إثر الجفاف الذي ضرب الأرض، سجّلتُ اسمي مع عمال كثر وجنود، جئنا بمراكب على النيل ثمّ عبرنا صحراء «بيوضة» بالجمال بمحاذاة ضفة النيل الغربية، إلى وسط بلاد السودان . .

سألني العمدة في «قِنا» قبيل رحيلي، وقد تملكته الدهشة من حماسي وإصراري على السفر:

– ماذا يجذبكم يا ولدي في بلاد السودان، وهي – فيما يحكي من زاروها – الجحيم بعينـه . بلادٌ لا يطيقها أهلوها ، ولا غزاتها ولا «أتراكها». . !؟

رأى والدي أنّ مغامرتي في السودان، قد تكون رحلة أكسب منها رزقاً استعصى عليّ في مصر كلها، لا في الصعيد وحده. برغم أن العمدة «مهنّا» أصاب في رأيه، غير أن تشجيع والدي لي، هو الذي دفع بي إلى بلاد السودان. لم يسعفني لساني لتبرير رغبتي في السـفر، وانتظـرت والـدي أن يحدّث العمدة بلساني.

تنحنح ، ثم قال في لهجة واثقة :

– سمعتُ أن الأحوال قد هدأتْ، وأنّ معلمين كثيرين تطوعوا للسفر إلى السـودان، حتـى أنّ الكنيسة أعدّتْ عدّتها للسفر إلى هناك، والمسيحيون من ملتنا عددهم كبير، وقد وصـلوا– فيمـا سمعت– ليس إلى «سـنار» وحـدها، بـل إلى «كردفـان» وإلى أقاصـي «دارفـور». ليجـرّب ابننـا «سمعان» حظّه في أرض السودان ، لا أرى له حظاً هنا . .

لكن للعمدة «مهنّا» حُججاً لا تُقهر بيسر. رجل يُردّد بكبرياءٍ طاغٍ أمام كـل النـاس، أن جـدّه «ترهاقا » العظيم :

– ولدك عوده طريّ، يا أبا «سِمعان»، وفي عزِّ شبابه وفتوته، والأرض تترجّاه أن يفلحها . . !

بادر «سِمعان» برَدٍ حاضر، غير آبهٍ لصمت والده تلك اللحظة :

– إنّي أكملت الكُتّاب يا «سي العمدة» ، ولي في القراءة والكتابةِ الشيءُ الكثير. سمعتُ أنهم يحتاجون لتوظيف كتبة وإداريين، لدعم الحملة في تثبيت الحكم وإدارة البلاد وترويض أهلها. ليس لي يا عمّ مزاج في الزراعة والطين، ولن أفيد أبي هنا. حظي في بلاد «سنار» ينتظرني. . حكومة «أفندينا» محمد علي باشا الكبير سترعانا هناك.

لم تعجب حجّتي حفيد سلالة «ترهاقا»، لكنه آثر الصمت وأطرق بما لا يفيد معارضة لرأيّ. إنّ وادي النيل ساحة تفاعلٍ مشترك، ضاربٌ في جذر التاريخ. .

يوم الأحد . .

بعد الصلاة في كنيسةِ البلدة والشمسُ في شرخِ السماء، أعددتُ عدّتي وحزمتُ ربطة ملابسي، وودّعت والدي وإخواني :

– تركتكم بعافية وسأرسل لكم ، وأفيدكم أولاً بأول بأحوالي في بلاد السودان.

برغم أنّ أبي بدا رابط الجأش، متماسكاً حتى لحظة احتضانه لي مودّعاً، لكنهُ همسَ بلسانٍ مُتلعثم وبقلبٍ غلب اضطرابُهُ على ملامحه الهادئة، فبان تأثره وأنا أودّعه مغادراً:

- سمعتُ أنّ الرّحلة شاقة يا «سِمعان». تنبّه لحالك يـا ولـدي، وإني سأصـلّي مـن أجلـك، وستسبقك خطوات الرّبِ تبارك لك في الذي انتويته. لا تفارق الصلاة في الكنيسة هناك، وتذكر الرّب في كل لحظة. نحن هنا بقلوبنا معك. إنّ المرحومة والدتك من قبرها تبارك خطوتك. .

لاحظتُ تلك الدمعة التي انحدرتْ عصيّة على خدِّه، حاول مداراتها قدر ما تسمح به أصابع كفيهِ .

انثنيتُ بعد ذلك إلى السّوق، حيث كانت جماعة المسافرين في انتظارنا بعد أن اكتمل عقـدها من «أسيوط» و«إسنا» وستتجه من «قنا إلى أسوان» جنوبـاً، ومنهـا سـتغادر إلى بـلاد السـودان. «شرقي أنطون» .«عمّار الشقيلي» . «موسى ميخائيل». «حسن كرار الكنزي». «ميلاد جرجس». «يوسف أغا». «سيدهم». «عبد السميع قناوي». رهط غير متجانس من الناس تتفاوت أعمارهم بينهم شبابٌ مندفع متطلع ونزق، ورجالٌ كبـار في السـنِّ، طـاعنون مثقلـون بتجـارب الحيـاة. مسيحيون من طوائف متباينة، ومسلمون من مللٍ عديدة. بدأنا الرحلة الطويلة إلى الجنوب، قبل منتصف النهار.

تركنا «قِنا» وراء ظهورنا. الترابُ والطين والكنائس والمساجد وكلّ شيء. .

من «أسوان» نصحونا بالسفر نهاراً، إذ كلما قطعنا المسافة إلى الجنوب، زادتْ درجة الحرارة إلى ما لا يطاق. السّفر في الليل إلى السودان أقلّ قسوة، ودرجة الحرارة تنخفض إلى ما قبل شروق الشمس. السَّفر عبر «صحراء بيوضة» مغامرة مخيفة، ولا تخلو من مخاطر جمّـة، أقلّهـا هجـوم بعض الذئاب وغيرها من وحوش الصحراء على المسافرين، وأكثرها- بعد غدر ضربة الشمس- غدر اللصوص الذين يجوبون طرق الصحراء، ويجولون كأنهم أدلّاء يعرفون الطريق ويشـقّون الجبال والصحراء، لكنّهم يأخذون القوافل في أكثر الأحوال، إلى فخاخٍ منصوبة، ينهبون عنـدها كل ما يملكون، ويتركونهم لمصائر مجهولة في صحراء لا تعرف الحياة.

الغُزاة وحدهم هم الذين تُعينهم حاسّـة الشـمِّ وتقـودهم إلى ضـحاياهم، يتصـيّدون لحظـة الانقضاض، فلا تفلت الفريسة من بين المخالب. نحن - وليغفر لنا التـاريخ- الغـاوون الـذين يتبعون الغزاة، حافراً فوق حافر. هجمَ «الدفتردار» على بلاد السودان، في غضـبته العارمـة، بعـد اغتيال ابن عمّه في حريق «شندي» الشهير، هجوم الذئب على حظائر الحملان النائمـة. لم يتـرك قبيلة ولا طائفة ولا عشيرة، ملوكاً وزعامات وغمار الناس من الشمال وحتى «سنّار» وأطرافها الجنوبية، إلا وسامهم الويل. ثم عرجَ إلى «كُردفان» و«دارفور»، فألهبَ ظهور رجال البلد بسياطٍ من لهيب وعذاب. حملات التأديب استمرّت سنين عددا.

كنّا نعرف أننا ذاهبون إلى ديارٍ جرى تأديب أهلها وتدجين متمرديها خلال سنوات لوّنها الدّمُ القاني، وإلى غابة تمّ ترويض أسودها وفهودها ولم تعد تخيف أحدا. أجـل، الغـاوون نحـن. مـا يُطمئن أننا جئنا إلى البلاد بعد هدوء أحوالها، كانّ في قافلتنا معلمين وكتبة ورهبان وعمال مهـرة وآخرين غير مهرة. بينهم مغامرون لا يعرفون ماذا يريـدون تحديـداً. يرافقنـا جنـدٌ مـدجّجون، عركوا الطريق مراراً، وبيارقهم مرفوعة إلى السماء. البلاد قطعة من الجحيم. الخوف من حرارة الطقس، فاق خوفنا من بسالة رجال من السودانيين، أنوفهم إلى السماء مرفوعة، بـرغم الهـزائم التي لحقتْ بهم. سمعنا قصصا عن ملكهم «المك نمر» الذي لاذ بالفرار منذ سنوات إلى أرض الحبشة، هوَ في نظرهم ملكٌ همام وبطلٌ مغوار، بمقـاس «عنتـرة العبسـي»، نصـير للمظلـومين وسادنُ كبريائهم وكرامتهم. .)

لكنّ الرؤى حملتني إلى سنواتِ الثلاثينات من القرن العشرين. جدّي «بطرس» هنا يبدو أصغر سناً، أكثر شباباً من عمّي الذي أعرفه في «المسَالمة». عمّي «جريس».

جاء «أنطون شرقي» صديق جدّي «بطرس ميلاد»، يتهـادى مُـتمهلاً في مشـيته، كأنـهُ سـلطان يملك أقداره وأقدار الناس من حوله. أطلق تحيّات الصّباح على أصحاب المحلات والحوانيت في السّوق ، ثم قصد محل صديقه «بطرس». «شرقي أنطون» الكبيـر لم يخلـف غيـر ولـد واحـد أطلق عليه اسم جدّه «أنطون»، وقد ورث الرّجـل عـن أبيـه التجـارة في الخـردوات وفي أقمشـة الحرير والصوف والدمّور يجلبها من مصر. «بطرس»، ابن «ميلاد»، أقدم منه في تجـارة السـوق. شهرتهما في «أم درمان» طبقتْ الآفاق ووصلت إلى أطراف «ود مدني» و«سنار». .

– القهوة يا «عيشة». . شيخُ السوق هنا !

وتبدأ حكاياتُ السّوق وقصص المدينة الترابيـة ، يتبادلهـا جـدّي «بطـرس مـيلاد» وصـديقه التاجر «أنطون شرقي»، مع كل رشـفة فنجـان قهـوة يتشـاركان احتسـاءه. بـين الحكايـات تـرد القصائد الغنائية. يأتي الشّعر من نظم جدّي «بطرس» فيكـون التنـاغم والحميميـة والـودّ بسـاطاً ممتدّا.

لن يعرف جدّي أنّ القدر يرسم لي تاريخاً قادماً يُشابه تاريخه.

– يوماً ما وبعد أن أغادر هذه الدنيا ، ستكون من نصيبك إحدى حفيدات «أمِّ السّعد» . .

هيّا ، شدّ حيلك وأكبر سريعاً ، وكن رجلاً يفخر بك جدّك. . !

هتف «أنطون» ضاحكاً :

– دع خطرفاتك أيّها العجوز. . هل أصابك خرفٌ مبكر. . ؟ الولد لم يبلغ بعد !

سمعتُ منَ عمّي أنّ جدّنا «سِمعان» القناوي تمنّى في أيام شيخوخته الأخيرة، أن يقترن أحد أحفاده بإحدى حفيدات جدّتي «ماريان»، ولكن القدر قال كلمة مختلفة. . خرج «سِمعان» القناوي من بيت ملّته، وعمّد نفسه في كنيسة أخرى، ولكن تاقتْ نفسه إلى بيته الأول في «قِنا»، بيته الذي غادره طائعاً مختارا. الحنين لا يموت، فيما للطرق المفضية إلى البيت القديم، علامات بينة وإشارات دالة ولمعٌ في الأنفاق المظلمة . لم يدُم زواجه زمناً طويلا، إذ بعد أن استولدها ابنه الوحيد «ميلاد»، ثمّ تذرّع بحججٍ واهية دفعته لمغادرة بيت الزوجية، فبقيا منفصلين حتى وفاة «ماريان». .

استطرد عمّي «جريس» وكأنه يتلو من كراسة أمامه:

(كان «شرقي أنطون » الكبير هو أقرب أصدقاء «سمعان» القناوي إلى قلبه، فقد جاء برفقته منذ أوّل سنوات الحكم المصري التركي، ثلاثينات القرن التاسع عشر، وتلازما زماناً طويلاً. في منعطفاته الحياتية، يأنس إلى «شرقي» وينصت لحكمته. قال له «شرقي» ناصحاً، حين تلمّس رغبة صديقه الجارفة في الاقتران بزوجة من غير طائفته، وإن كانت مسيحية مثله :

- يا «سِمعان» أتفارق كنيستنا وملتنا فلا نلاقيك معنا في حلنا وترحالنا ، وقد جئنا معاً في قافلة واحدة من « أسيوط» و«قِنا» . . ؟

- الذي وحّد قلوبنا إلهٌ واحد، لا بيتٌ مبنيٌّ من آجرٍ أو طـين. . جئنـا إلى هـذه الـبلاد غربـاء وأقمنا بين أهلها وسعدوا بنا وسعدنا بهم. لسنا أتباعاً لعساكر «أفندينا». والله يا «شرقي» إنّ الذي يربطني الآن مع «الشقيلي»- وقد جاء معي من «قنا» ولم أكن أعرفه هناك- لأقوى من أن تفصمه صروفُ الأيام هنا. «الشقيلي» المسـلم، كأنّـه شـقيقٌ لي. ومـا مكانـة «عبـد المسـيح» أو مكانـة «سيدهم»، بأكثر من مكانته، بل هي مثل مكانتك عندي. .)

رفع عينيه إليّ وقد تملكه حزنٌ دفين ، فقال:

- لم يدُم الجدلُ طويلاً، حتى بادر «شرقي» الكبير بمباركة رغبة صديقه «سِمعان» القنـاوي في الاقتران ببنت الأسقف، الجميلة «ماريان». . ذلك كـان دخـولاً تاريخيـاً ولكـن- ويـا لأسـف التاريخ – أعقبه ذلك الخروجُ الهادئ من بيت «ماريان». .



الحنينُ إلى «قِنا» ..

وحدّث جدّي «بُطرس» قال:

(كنتُ أسمع جدّي لأبي، «سِمعان» القناوي يصرخ غاضباً مُستسلما:

– لو خيّروني، ما كنت سأعود إلى دياري القديمة أبدا. توطّد مقـامي في أرض القـيظ هـذي، وإنّي مقيم فيها أبدا. لو كان النيلُ هِبَةَ مصر واتجهُ شمالاً، فأنا هِبَةُ الصحراء ، قدري وتـاريخي، أن أمضي إلى آخرِ الشوطِ جنوباً. .

لكن يا جدّ : أعلمُ أنك قدمتَ بعد سنين من حملة «الدفتردار» القاسية في بلاد السودان. . وأنا أسألك : مَنْ خيّر «الدفتردار» ليهبَّ كالإعصار جنوباً ويدمّر بلداً، كان آمناً نسبياً، ليُفتح لكم بعد الغزو، فتتملكوا مصائركم ومصائر غيركم، في بلادٍ لا تعرفونها . .؟

وددتُ في رؤاي أن أدفع بتحديات التاريخ، حتى يخرج لي جدّي ما في جعبته . قـال التـاريخ كلمته، ولكن لم يقل جدّي بعد، كلّ ما عنده.

تجرّأ «المك نمِر» ملك قبيلة الجعليين السوداني وقتل «إسماعيل باشا»، ابـن «محمـد عـلي باشا الكبير» في عام 1823م في مدينة «شندي»، فقد جاءه الباشا غازياً، لا ضيفاً يعامل بالأصول المرعيّة. جاء «الدفتردار بك» بعد ذلك ، منتقماً لمقتل ابـن عمـه. كيـف تسـتقيم حجّـة جـدّي الأوّل، كونه هِبَة الصحراء المحمولة جنوباً ، فيما هو في عداد الغزاة القادمين من ديـار مصـر. . ديار أجدادي؟ كان النيلُ شاهداً على ما جرى،

لكنهُ لم يتدخل. كان نهراً محايداَ، أو ربّما متواطئاً خائنا. لم يُغرق النيلُ بوارجَ الغزاة، بل أطعمهم من بطنهِ سمَكاً شهيّا، ثم يَسَّر سبيل عودتهم غانمين إلى مصر هبة النيل، محمَّلة قوافلهم بقليل الذهب، وقد توهّموه قناطير مقنطرة، فعادوا بوفاضٍ خالٍ، وبالرِّجال فما استحلَّوا إلا الرقيق والإماء وقد استرخصوا قيمتهم وأدرجوهم في جيوشهم، وبريشِ النّعام وعاجِ الأفيال، بعد أن أشبعوا حيوانات الله الآمنة في بيئتها، قتلاً وذبحا. قليلون هم الذين استطاب لهم المقام في بلاد تجفّ من الحرِّ أشجارها. . منهم «سِمعان» القناوي . منهم «الشقيلي» الإسناوي . منهم « شرقي أنطون ». .

ها أنذا أستمع لقصصٍ عن جدّي «سِمعان» القناوي الكبير- سميّ أبي- واسترجع سنوات موغلة في القرن التاسع عشر الميلادي. لم يكن جدّي معي، في تجوالي في «حيّ المسَالمة»، بل لم يسمع بإسم هذا الحي، ولا كان في مخيلته أنّ حفيداً له، سيلاقيه في تجاويف حلمٍ قديم، وقائعه خيالات وأوهام وتهيؤات، تركض في زمنٍ قادم. في أوقاتٍ، يتملّكني شعورٌ قوي أني سأرى جدّي الأكبر «سِمعان» القناوي في سوق «أم درمان»، يتمخطر في جلبابه الصعيدي الأبيض، متلفعاً ب«فرجيته» الداكنة السّواد، ومُعتمراً عمامته القصيرة تلك، مشدودة على رأسه الأشيَب، وكأنّهُ قادم لتوّه مِن موطنه «قنا» بعد سفرٍ بعيدٍ، طوى أمياله بالمراكب فوق النيل، وبالجِمالِ في اصطبارها البليغِ، تعبر الصحارى والقفار.

ومثلما سمعتُ من جدّي «بُطرس»، حدّثني عمّي «جريس» في تجلياته الشيّقة، بطرفٍ من قصَّة جدّي «سِمعان» القناوي، لكنهُ آثر أن يخفي عنّي شيئاً لا أعرف كنهه. لا أعرف مقصد إخفائه.

في ساعاتٍ لا تُسمع دقاتها في ليل «حيّ المَسَالمة»، يترامَى إلى مسمعي صوتُ جدّي «بطرس ميلاد سِمعان» ينشد أشعاره الغزلية مسحوراً ببنات «حيّ المسالمة». تكاثرتْ عليّ الحكايات، واستولد التاريخ لي جدّاً من جدٍّ قديمٍ، وصوّرتْ لي أحلامي وخيالاتي، أكثر من «سِمعان» واحد، وأكثر من «بطرس» جدّي، فهنالك «بطارسة» كثر و«سِمَاعين» أكثر، احتشدوا في رؤاي وخيالاتي وقصص عمّي. هيَ قصصُ هجرات قديمة من صعيد مصر. قصص لشعراء تناقل الناس أشعارهم الشعبية. قصص لرهبان وأساقفة وشمامسة. في بعض هذه القصص، كنت أرى أيامي القادمة، فأقرأها مثلما يقرأ عرّافٌ ساحر، أياماً قادمات، وأحداثاً يتنبأ بوقوعها من غيابة بلّلور سحري.

جاءني «سِمعان» الكبير يدلف إليّ في أحلامي، فسألتُ طيفهُ في حيرتي وبلبالي:

- كيف تجاوزتَ اضطرابك يا «سِمعان»، وأنت تقترن بزوجةٍ من طائفةٍ أخرى . .؟

كنتُ أتصوّره يضحك، ولكنّي أعلمُ أن الخيالات والرؤى لا تسجل ضحكاً ولا حتى ابتساما.

- كانت «ماريان» صنوَ روحي. رقيقةٌ كما النسيم، وطيّبةٌ لا يعرف لسانها أن ينطق لغوا. قلبها صافٍ، وكأنها كانت تنتظرني أنا ولا أحد غيري .

- أقول لك يا جدّي صريحاً، أنّ خياراتك كانت محدودة ، ولم يكن أمامك غير جدتي «ماريان». . !

ضحكَ «سِمعانُ» الكبير وكأنّهُ يؤمّن على مزاعمي، ثمّ أجابني:

- مقامي في السودان، مثل مقام الأسقف «جورج» والد «ماريان» : غربة طاحنة ! جئنا بعد أن انطوت سنوات «الدفتردار» تلك، إلى بلد تتعثر خطاه، لا يقف على طريق. رأينا كيفَ أنشأ الأتراكُ بالشدّة والعزم، مدينة الخرطوم، بعد ذلك بسنوات. في البلاد قسوة لا تنكرها عين، وجفافٌ خانق لا يطاق. في مدرسة الكنيسة، وأنا معلّم فيها، كنتُ كمن يحرث في الماءِ بلا طائل. القوم من حولنا جافون، لا يرغبون في التقرّب إلى من جاءهم غازيا. كانوا يتوجّسون من بقائنا في البلد، بعد مرور كل هذه السنوات، وكأننا أمام أعينهم، سرّاق نهّابون وقتلة أشقياء، جئنا لهدفٍ وحيد ثلاثي الأضلاع، وهو امتلاك الذهب وقنص العبيد وصيد الأفيال ! الرَّاهب الايطالي الكبير«جورج مانتوري» افتتح الكاتدرائية في الخرطوم في السنوات الوسيطة من القرن التاسع عشر، مبانيها متواضعة تطلُّ على نهر النيل الأزرق . «جورج» هو ساعده الأيمن.

تتلاحق الرؤى، فلا أكاد أتبيّن ما أراه بعينيّ، مـن ذلـك الـذي يتصـنّعه خيـالي مـن خرائـب الذاكرة .

تلاقينا في لحظاتِ الحلم، وصحوتُ من غفوتي قبيل بزوغ الشمس. أنفاسي تتلهّف للإمساك بما سمعت في رؤاي من جدّي «سِمعان » الكبير، والوقائع تذوب بـين سـنةٍ وأخـرى، بـينَ عقـدٍ وآخر، بين قرنٍ كامل وقرنٍ آخـر. بـين «سِـمْعان» الكبيـر الـذي عـرض لي في منامـاتي، وجـدّي «بطرس» الذي رأيته في طفولتي. سأحكي لك يا «زينب» بعض تاريخي. سأحدّثك عن أجـدادي الذين وفدوا مع الغزاة. عـن انتصـاراتهم وانكسـاراتهم. عـن كـرّهم وفـرّهم، عـن نـزواتهم ثـم انزواءاتهم. .

درّسونا في المدارس طرفاً مِن تاريخ غزو الأتراك لمملكة «سنّار» عام 1820م، تلك الأعوام التي جاء جدّي بعدها بسنواتٍ قليلة، إلى بلاد السـودان . قـرأتُ فيمـا قـرأت مـا كتـب الباحـث الأمريكي «سبولدينق» في كتابه «**عصر البطولة في سنّار**» ورأيت تاريخ سلالتي ترد في بعض الذي سرد في كتابه. مكتبة عمّي «جريس» غنية بكتب التاريخ القديم، وهو الـذي دلّنـي عـلى مـا كتـب الباحث الأمريكي «سبولدينق». وقفتُ مستعجباً أقرأ ترجمـة الباحـث السـوداني أحمـد المعتصـم الذي نقل الكتاب إلى العربية. ما أكثر ما سمعت من جدّي «بطرس» ومـن عمّـي «جـريس» عـن غزو سنار والحكم التركي القديم في وادي النيل.

كتب الأمريكي «سبولدينق» في ثمانينات القرن العشرين:

« عندما دخل الجيش التركي منتصراً إلى مدينة «سنار» التي استسلمت توّا، لا ريب في أن العديد من الغزاة أحسّوا بخيبة الأمل التي عبّر عنها خبير التعدين المرافق للحملة، «فريدريك كايو»، إذ قال : لم تظهر الثروات الهائلة من الذهب والعبيد والعاج التي كان يُحكى عنها في أيّ من ساحات المدينة. وكانت أقوال رجال مدينة «سنار» تشير إلى أن هذه الكنوز تأتي من عمق الأراضي غير المعروفة، والتي تنبسط بعيداً في الأفق الجنوبي».

« وبإيغال الغزاة الأتراك في الأراضي الجنوبية خلال السنوات القليلة التي تلتْ الاحتلال ، بدأ الغموض الأوّلي في الإنجلاء تدريجياً، إلا أنّ الثروات ظلت على الدوام بعيدة عن المتناول وعادت طلائع الاستكشاف، بقصص عن أراضٍ قاحلة ليس بها ماء تنقلب بين عشية وضحاها إلى بحرٍ من الطين تغوص فيه الركائب إلى بطونها ، ومستنقعات موحشة تنعدم فيها المسالك، تساوي الواحدة منها ولاية كاملة من ولايات الإمبراطورية العثمانية، لا يدركها «الباب العالي». طبقات من الجبال الكالحة ترتفع في الأفق في سلاسل تنتهي إلى بلادٍ غير معروفة، وآفاقٍ يدفنها المجهول. أما الكتائب التركية التي هاجمت بضراوةٍ لا كابح لها، تلك المقاطعات والمناطق الصغيرة المسالمة على طول مجرى النيل في الشمال، فقد وجدتْ نفسها في تلك المساحات الشاسعة، مثل ثلة من الأقزام، يحيط بها عدو أكثر عدداً وتصميماً وغموضاً ، وخمدتْ جذوة الغزو الأولى ولا كنز في الأفق..»

هـل تنصـتين لقصصـي يـا «زينـب» أم لقصـص المـؤرخين مـن أمثـال «فريـدريك كـايو» و«سبولدينق»:. . ؟

هكذا فتحتْ «سنار» فخذيها لغزاةٍ نهمين، أعينهم على الثروات، يتوهّمون رؤيتها وهي أبعد منالا. جاء أجدادي بعد الغزاة، فكأنهم وبرغم ذلك، ظلوا على فقرٍ وعـوزٍ ومـا نـالوا مـن موائـد الغزاة سِوى الفتات.

حدّثَ جدي «سِمعان» القناوي الكبير ، يحكي عن مدينة «الخرطوم»، مستطرداً:

(. . ما جئتُ معهم غازياً. لم أكن نخّاسا أتاجر بالبشر، ولا امتهنت تجارة الرّيش والعاج، وما صِدت نعاماً ولا أفيالا. بعد سنوات أضعتها في امتهان تجارة لم أجنِ منها ربحا، التحقتُ بعد سنوات من التبطل والمعاناة، مُعلماً في مدرسة الكنيسة الصغيرة التي أنشاها « جورج مانتوري» في «الخرطوم» في عام 1840، بعد أن تحوّلت المدينة حاضرة معتبرة للبلاد، وأنشـأ الحكمـدار «خورشيد باشا» مبانيها، وشيّد إداراتها، وخطّط للمدينة أحياءها وطرقاتهـا. كانـت مدينـة عـلى تواضع طرقاتها وأزقتها، جميلة على طريقتها، مثل حسناء بدوية مغسولة بالحليب والزّبدة. أقول إنها أجمل من «قنا» التي فارقت. طاب لي المقام فبقيت فيها. . كتبَ اللهُ لي مقاماً في بلاد الجحـيم هذي، وأحببتُ إقامتي فيها، فيما اختار كثيرون الهرب فراراً إلى ديارهم القديمة. .)

وقفتُ محتاراً بين والدي «سِمعان» وجدّي الأخير «بطرس». ينحدران من جدٍّ واحد هو «سِمعان» الكبير ، فارع الطول جسيما ، مُعتمراً عمامته قصيرة، وفي ظهر كفهِ وشمٌ قديمٌ من «قِنا».

– أنتَ «سِمعان» الكبير الذي أعرف. قُلْ لي كيف أقمتَ في بلاد السودان السنين الطوال وما قادتك أشواقك إلى «قِنا». .؟ ألم تترك وراءك هناك، ما جئتَ تبحث عنهُ في «الخرطوم». . ؟ ألم تسمع عن صوفيٍّ مُسلم عاش في بغداد إسمه «بشر الحافي» حين نصحوه بأنّ الذي يبحث عنه قد خلّفهُ وراءه ب«بسطام»، فعاد إليها فتحققَ وفُتحَ له . . ؟

قال جدّي «سِمعان» القناوي الكبير وكأنّهُ يُحدّث نفسه، لكنّي قدّرت أنه كان يخاطبني أنا:

– موقنٌ أنا يا بنيّ أنّ الذي ابتغيه مدفونٌ هنا في بلاد السودان، وإنّي باقٍ حتى أتقصّاه وأناله. .

– هي «ماريان» إذن يا جدّي. . !

كنتُ أحسّ أنّ جدّي قد فارق أرضاً في مصر، ويمّم شطر أرضٍ أخرى، أفقها مُلتبس برغم شموسها الحارقة، برغم أقمارها الحالمة. قبطيّ يفارق كهف ملته ويتحلل من ألوانها جميعا، ويقف مستشرفاً تاريخاً جديداً له في بلاد السودان . خروج من بيت ودخول إلى بيتٍ آخر.

– ما فارقتُ مسيحيّتي ، بل كأنّي قد خرجت من غرفتي في «قِنا» إلى غرفةٍ مجاورة. ما فارقتُ الدار . .

– أهيَ «ماريان» أمْ ستهرب من أسئلتي . . ؟

– كلا يا بُني، لم نتصادم على العقيدة. هي مسيحية وأنا مسيحيّ . «ماريان» من أمٍّ مصرية وليست غريبة عليّ، وإن كانت على ملّة والدها، كاثوليكية لا تلاقيني، وأنا قبطيٌّ أصلّي في ضفةٍ أخرى. . ولكنى اقترنتُ بها آخر الأمر. تزوّجتها على سنّة كنيستها ولم يجبرني أحدٌ للتنازل عن عقيدتي التي عليها آبائي. . كنا في بلدٍ غريب، وكان علينا أن نسمو فوق اختلافات العقائد، وإنّي أحمد لرجال «الكنيسة الكاثوليكية» سعة أفقهم أوانذاك. . لكن التاريخ تآمر علينا، والأقدار أرادتْ لنا أمراً مختلفا. .

– لو كنت التقيتها في «قِنا». .؟

ضحك جدّي وتمتم:

– ما كنت ستحظى يا بُنيّ بجدّةٍ لك مثل «ماريان». . لها غفران الرّب !

لكأنّ جدّي «سمعان» الكبير يظنّ أن بمقدوري أن أقفز فوق الحِقَب الزّمانية لتلاقيني جدّتي «ماريان»، صحبة أبيها الإيطالي«مانتوري» والأم القبطية «ماري». أنْ أدلف إليها وأركض نحوها لتلاطفني، وتحاصر أذنيَّ بحكاياتها البديعة، فيما أنا في حيرة من أمري، ولا أعرف يقيناً هل سأبقى في بيتي وأنا أناور لأقترن ببنت «الشقيلي»، أم سيلفظني بيتي . . ؟

صحتُ في حلمي وبصوتٍ لم يبرح حنجرتي :

– يا جدّي «سمعان» الكبير. . هبني حكمتك . . هل تسمعني . . أم أنّ أقداري كتبتْ لي أن أتشرَّد في بريّةٍ مجهولة المعالم، بلا خارطة ولا بوصلة. . ؟



«بُطرس» : وَسيطُ التسامُح

كنتُ قد سمعتُ مِن عمّي حكايات عن جدّي «سِمْعان» القناوي الكبير، وربما اطلعت عـلى بعض الذي في أوراق جدّي الشاعر «بطرس ميلاد»، ولكـن الأمـور التبسَـتْ عـليّ ف«سِـمعان» الكبير غير «سِمعان» أبي. أمّا «بطرس ميلاد»- والد عمّي «جريس»- فهو الذي استعمر ذاكـرتي، وتراءتْ لي وقائع أيامه متداخلة في وقائع أيامي، كأنّي أتطلع في مرآة بلا نهايات. تمـاهى كـلٌ مـن «بطرس» جدّي لأبي و«سِمْعان» الكبير في الحكايات التي حدّثني بها عمّي «جـريس»، يأخـذاني إلى سنوات قديمة. سمعتُ منه أنّ والدي «سِـمعان»- سـميّ جـدّي- وقبـل أن أولـد أنـا، كـان ملازماً لوالده «بطرس» يساعده في إدارة محله في السوق.

تجري الوقائع على لسانِ عمّي «جريس بطرس»، وقـد شـهد أطرافـاً منهـا وهـو صـبيٌّ غِـر. حدَّثني فقال :

(كنتُ صبياً يافعاً، أصغر سناً من أخي الأكبر «سِمعان»، والـدك يـا «عزيـز» ، ولكـن كنـتُ ألاحظ كيف كان أبي «بطرس» يغرم غراماً شديداً بحكايـات السّـوق السـريّة، يتابعهـا بشـغفٍ واهتمام، يعجب صديقه «أنطون شرقي»، فتجده يسارع كل صباح إلى محله، قبل اكتظاظ شارع سّوق «أم درمان» الرئيسي بالمتسوّقين، فيلقي إليه بقصّةٍ من قصصه الشيّقة عن أحوال الناس في الحيّ، مع تحايا الصّباح المعتادة.

نظر أبي ،«بطرس» ، وقال آمراً :

- هيّا يا بني. . آتني بقهوة الصباح . .

قال ذلك وكأنّهُ يخاطبني أنا ابنه الأصغر، لا «سِمعان» أبيـك. نعـم. الـذي كـان أمامـه هـوَ «سِمعان» والدك. كان صبياً يكبرني بسنين عديدة، لكن بلغ الكبر بجدّك مبلغاً لم يعـد يتبـيّن أيّ أولاده يخاطب. الصغير أم الكبير. .

بدأتْ الحركة تدبّ في الشارع الشمالي مِن سوق «أم درمان». رفع «أنطون شرقي» عقيرته من محله المجاور، محيياً والدي «بطرس» كعادته كل صباح. دعاهُ لتناول قهوته معـه، والتفـتْ إلى أخي «سِمعان» معدلاً أمره :

– «سِمْعان» . . قل للحاجَّة «عيشة»، أنْ تعدّ طلبين من القهوة. .

اقترب «أنطون شرقي» وجلس على مقعدٍ خالٍ إلى جوار والدي، وهمس إليه :

– «بُطرس»، هل بلغك خبر «نيان»، صديقنا الهندي ؟

هتفَ والدي «بطرس»:

– لا.. ولكني لاحظتُ أن محل «نيان» مغلق ليومين متتالين يا «أنطون». ما الخبر ؟

التفتَ أبي إليّ، وكاد أن يبعدني عن جلسته مع «أنطون شرقي»، لولا أن فاجأه الأخير هامساً:

– إنهُ لأمرٌ جللٌ يا «بطرس». . !

جاءت «عيشة» بالقهوة ولم يتوان والدي عن ممازحتها بكـلام لم يبلـغ أذني ولكـن ضـحكت المرأة وجفلت من جلسة عجائز لا يتورعون عن الترخّص بقول كل شيء.

رشفَ أبي رشفةً قصيرة مِن فنجان قهوته، وتهيّأ لسَمَاع القصّة من «أنطون شرقي». .

– علمتُ أن ولداً من أبناء أسرة «حاج حامد» طلب يد ابنته !

– أعرف أنّ بين الأسرتين علاقات وثيقة وتجمعهما جيرة راسخة . . لكن هل يرفض «نيان» الهندي مصاهرة شيخ العرب «حاج حامد» . . ؟ ابنهُ «ناصر» شاب طيب. .

بدتْ لهجة والدي خالية مِن أيّ دهشة للقصّة التي جاء بها «أنطون شرقي». ليستْ هذه هـيَ المرّة الأولى التي تتمّ فيها مُصاهرة بين طائفة وطائفة، من غير لونها. نحن الصغار في «أم درمان»، نجلس إلى بعضنا برغم اختلاف مللنا، نلهو ونعبـث، لا مرجعيـة لملاهينـا، إلا بـراءة جمعتنـا في شارعٍ واحد، ورباط الجيرة يعلّقنا إلى بعضنا البعض، فلا نكاد نتذكر مَن منّـا المسـلم ومَـن منّـا النصراني، ومَن منّا اليهودي أو الهندي. في تراب أم درمان نتعفّر فتضيع معالم اختلافاتنا .

– لا يا صديقي «بطرس». القصّة أنّ الخلاف نشب حول مكان إقامة طقوس الزواج . «حاج حامد» يصرّ على إقامة عقد الزواج في سرادق ينصبهُ بعرض الشارع المواجه لبيت أسرة «نيـان»، و«نيان» يريد أن يقيم طرفاً من المراسيم في المعبد الهندي، في مدينة «التراب» هذي !

قال عمّي «جريس» يكمل القصة:

لم أفهم تعقيدات مراسيم وطقوس الزواج في سنّي تلك. هذه أمور تخصّ الكبار ويديرونها وفق حسابات دقيقة، في معادلات تتصل بتركيبة مدينة التراب، «أم درمان». «المسالمة». . هذه بقعة يقيم فيها فريق من المسيحيين منذ أوائل سنوات إنشاء مدينة التراب. كتبَ خليفةُ «المهدي» أن تكون البقعة الغربية من «أم درمان» سكناً للنصارى الذين تجيرهم عاصمة دولة «المهدية» المُسلمة، ولا تجبرهم على ترك دينهم، وإن لم تكفّ عن حضّهم للتحول إلى عقيدة الدولة. سكنوا «حيّ المَسَالمة»، وفيهم أمير الأقباط المميّز بين أمراء الدولة المهدية «يوسف ميخائيل». راهنوا على التسامح في العاصمة الترابية. تساكنوا مع سكان الأحياء القريبة، مسلمين وغير مسلمين. بعد زوال الحكم المهدوي في السودان، وبسط الحكم الثنائي سيطرته في السنوات الأولى من القرن العشرين، استقرت أحوال النصارى في حيّ «المسالمة» ، فسكنوا في نسيج المدينة ، بل سكنوا قلبها.)

بدتْ قصصُ عمّي «جريس» مبتورة هذه المرّة، وكان عليّ أن أعثر على بقيتها في أمكنة أخرى. في فضاءات أخرى. في ألسنة أخرى غير لسانه.

رأيتُ فيما يرى النائم، جدّي «بطرس»، والد عمّي «جريس»، يخرج إليّ من غيوم الكلام، فيقصّ عليّ أحسنَ القصص عن «مدينة التراب». في الحُلمِ الغريب، رأيتُ عمّي «جريس» نفسه وكأنهُ يقرأ من كتابٍ أو من كرّاسة تخصّ جدّي «بطرس». لستُ على يقينٍ ممّا أرى في الحلم، فقد جاءت القصة هذه المرّة، وكأنّها على لسان «بطرس سمعان»، جدّي لأبي:

(جرى في عهدنا في «مدينة التراب»، من القصص ما ينبغي أن يُحكى ويكون جزءاً من قصصِ «ألف ليلة وليلة». تلك خيالات وخرافات ولكن الذي عشناه، كان واقعاً مثيراً، من حكايات ترونها الآن بعيونكم، وكأنّها من قصص الخيال . ما اختلف «نيان» الهندي و«حاج حامد»، حول الذي جمع بين «شاندرا» كريمة الأول و«ناصر» ابن الثاني، فقد كانت عيون الجيران ترصد عشقهما، وتحيط تلك العلاقة بإعجابٍ حذر، ولم تكن تلك العلاقة مثار دهشة وعجب. كان «نيان» مُحقاً في أن يُحفظ له موقعه كرأس للجالية الهندية في المدينة، فتجد المراسيم الهندية مكانها من الاعتبار. حين سمعتُ القصّة، قلتُ لنفسي ، وأنا المسيحي المحايد، ما أنسبني وسيطاً بين العائلتين .

قصدتُ «نيان» في داره. رحبَ بي ونادى عليّ مثلما ينادي صديقٌ صديقاً يعزّه .

– أيّها العزيز، أقام والدك هنا في «أم درمان» منذ عهود قديمة، وأنت مُقيم هنا منذ مولدك. البلاد بلادك والأرض أرضك، وأنت سيّد هنا، مثلما «حاج حامد» سيّد هنا. بينكما بحرٌ من الودّ والصداقة، وكلنا نريد لهذه العلاقة أن تتوطّد وتزدهر. نحن في الحقيقة أسرة واحدة، وليست هذه الجدران التي ابتنيناها بين أسرنا، بجدران تعزل . أليس بينك وبين «حاج حامد»، «نفّاج» تزوران بعضكما البعض عبره . . ؟

ران صمتٌ طويلٌ بيننا. صاح إلى خادمه يطلب إليه أن يقدم الماء المُثلّج والقهوة لضيفه.

– في الحقيقة يا صديقي «بطرس»، كل ما أسعى إليه هنا، هوَ أن أكون جزءاً منتمياً لهذه البقعة التي أقيم فيها. أتصوّر نفسي – وأنا رأس الجالية الهنديّة هنا– وكأنّي أتجاهل عقيدة أجدادي الأوّل. كأني نسيت أني هندي، لي أهلٌ وقبيل في أرض أخرى . أتذكّرهم ويتذكروني، فكأنّي أدرت ظهري لمن هوَ جزء منّي. نعم أنا هنا منذ ميلادي، ولكن لي روابط الدّم، قائمة مُستديمة مع أسرتي الكبيرة في الهند . في «كشمير» . قل لي يا «بطرس» ، وأنت هنا في «أم درمان»، ألا تحسّ بالروابط تكاد تقيّدك إلى «قنا» إلى حيث يقيم أجدادك، إلى مراقدهم هناك في صعيد مصر. . ؟

أخذتُ رشفات من قهوتي، قبل أن أردّ عليه:

– لي خيالٌ يعينني يا صديقي «نيان». .

رمقني الهندي بعينٍ مُستريبة ، وكأنّهُ رآني مخادعاً أنصِب عليه.

– لا تسخر منّي يا «بطرس». أعرف أنك تقرض الشعر. نعم. ولكن ما علاقة خيالك بقصتنا هذه . . ؟

تبسّمتُ بوجه صديقي «نيان»، وهمستُ إليه :

– الأرضُ أرضُ الرّب ، وأينما أراد لنا أن نقيم، أقمنا. أينَما أراد لنا أن نموت ، رقدنا.

تشدّنا العقائد إلى الرّب قبل أن تشدّنا إلى الأرض. نشدتكَ الرّب في عُلاه، أن ترى الأمـر مـن زاويةٍ تُعين، لا مِن زاوية تصعّب الأمور وتعقّدها يا صديقي. أنـا أحبّـك وأجلّـك، وأعـرف أن «الحاج» يحفظ لك من المحبة والودّ، بأكثر مما أحفظ أنا . بينكم «نفّاج»، أراه الشـريان الـذي يروّي الزّرع النابت بين أسرتيكم. «نفّاج» «أم درمان» يقول لـك : هيّـا قـم لصـديقك، وأكمـل مراسيمك الهندية في سرادقه . . ما الذي يمنع . . ؟!

ما كان عليّ أنْ أنتظر رداً من صديقي «نيان». وقفتُ قبل أن تنبس شفتاه بكلمة .

– أنا في طريقي إلى «حاج حامد». . سمعتني جيداً، ولا أحتاج لردٍّ منـك الآن . دع الأمـر لي، أنسج حلاً بطريقتي . .

خرجتُ من عند «نيان» إلى «حاج حامد». حدّثوه أن «الخواجة» سيزوره قبل صلاة المغرب في داره. كان يفضّل أن يناديني بهذا اللقب الذي جاء به الأتراك إلينا، وأطلقناه على المستعمرين من الإنجليز. كنتُ أقاوم هذا اللقب، فما أنا تركيٌّ ولا أنا بريطاني، ولا حتى شاميّ من الشوّام الذين يحبّ صديقي «حاج حامد» أن يطلق عليهم هذا اللقب أيضا. لطالما أغضبني «حاج حامد» أوّل أيامي معه، ولكن بعد التعوّد ورسوخ الصداقة بيننا، ماذا أفعل أنا مع صديق يمازح ويناديني: «يا خواجة» . . ؟

– سلامٌ عليكم يا «حاج». .

– أهلاً أبو «سِمعان» . . أهلاً «بالخواجة». . حينَ أراكَ وأنت مرتدٍ جلابيـة «النقـادة» هـذه، أتخيّل أنّ بركات شيوخنا قد لحقتْ بك، وأنك ستكون بيننا في صـلاة المغـرب فـور سـماعك الآذان . .

وأردفَ ضاحكاً :

– «الحاج بطرس» . . إنهُ لقبٌ يليق بشيخ النصارى . . !

ولم أدعهُ يكمل قهقهته، فعاجلته مُمازحاً:

– ومتى أرى عليكَ عُمامة «الهندوس» وقد أوشكتَ أن تصاهرهم خفية وعلى استحياء . . ؟

تنحنحَ «الحاج حامد» ، إذ فاجأتهُ بفتح الموضوع من مدخلٍ لم يخطر على باله.

- لا . لا ليس هنالك ما نخفيه أو نستحي منه يا رجل. هذه «أم درمان». نحن أهلٌ وعشيرة، ولا أرى ثمّة ما يُختلف حولهُ، بيني وصديقي اللّدود «نيان»، إلا - ربّما - في شئون التجارة يا «خواجة». هو يحتكر تجارة الشاي منذ زمن، ولا يريدنا أن ندخل فيها . .

- يا «حاج حامد» . . هاهي سانحةُ قد لاحتْ لك ! لا أرى أفضل مِن مُصاهِرٍ نافعٍ لك الآن مثل صديقنا «نيان»، فلا تعاند نفسك وتفسد الأمور على ابنك «ناصر» . كلنا نبارك ما يجمع بين أسرنا في هذا الحيّ. في الحقيقة لا أرى ثمّة حدوداً فاصلة بين «حيّ المسالمة» و«حيّ العمدة»، أو «حيّ الركابية» من أحياءِ مدينة التراب «أم درمان». .

أنصتَ «حاج حامد» مليّاً لما سمع منّي.

- صدقت يا «خواجة» . . ولكن . .

- لندع «لكن» هذه جانباً . .

بقيتْ لموعد الصلاة دقائق معدودة، ولم يُرفع الآذانُ من مسجد الحيّ بعد . حدّثني الرجل بإسهابٍ عمّا بين أسرته وأسرة «نيان» من مودّة راسخة، وعدّد أمثلة لمناسبات جرتْ بين الأسرتين، ليس فيها من مرجعية غير هذا الجوار الحميم بينهما، فلا يجد الوشاة من مساحة لصنع دسيسة. البنات والأولاد يوثقون علاقاتهم، ويحتفلون في مختلف المناسبات سويّا. حفلاتُ أعياد الميلاد. حفلات ختان الصغار. المناسبات الرمضانية وأعياد الفطر وأعياد الأضحى. حفلات أعياد الميلاد المجيد. حفلات الزفاف .

تناهَى إلى مسمعينا آذان المغرب، بصوت «سلطان الشقيلي»، مؤذن مسجد حيّ «العمدة»، جهوراً يصل إلى أطراف الحيّ ، يسمعهُ النصارى والمسلمون وغيرهم على السواء . يحمل صوت الآذان خيطاً واحداً ينتظم حوله عقد من الأتيكيت والروتين الراتب لا يحيد عن الإلتزام به أحدٌ، ولو كان مسيحياً أو يهودياً. كان الإغريقي المسيحي «أبوللو حاجوغليان» لا يفتح خمارته، بل لا يبيع منها، إلا بعد إنقضاء صلاة المغرب.

– الهنود معنا في الحيّ ينصتون لآذان المغرب. . هل ترى مانعاً في أن يشاركنا الهنود بطقوسهم في سرادقك، تمازج طقوسنا ، يوم زفاف ابنة «نيان» إلى ابنك. . يا صديقي . .؟

تبسّم «الحاج» وأطرق ملياً. أيقنتُ أنّي ظفرتُ بما طلبت منه.

مع اختتام المؤذن : «..لا إله إلا الله ..» غادرتُ دار «الحاج» وتركته يمهّد لصلاته بالوضوء ليلحق بصلاة الجماعة في مسجد الحي، القريب من كنيسة الشهيدين. .)

قلتُ لعمّي «جريس» وكأنّي أخرج من حلمٍ طويل:

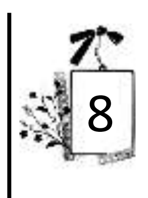
– يا لها من قصّة. . ! كان جدّي «بطرس» حكيماً ثاقب البصر. .

زفرَ بعد شهيقٍ، وكأنّهُ يرى شيئاً ينضح حزناً في أفقٍ يلوح له وحده ولا يلوح لي . .

– فوق تراب المدينة، وتحت سمائها الأزرق الصافي، لا يخرج أحدٌ على نواميس التسامح فيها. . تشابكت مع الجوار صداقات حميمة وأيضاً مصالح تجارية في السوق.. «نيان» يعرف ما ينتظر من حليفه في السوق «حاج حامد». .

كلنا من تراب . . وأم درمان مدينتنا، «مدينة من تراب». .

أفقتُ من حلمي وكأنّي أقفُ على مدافع التاريخ تدوي من حولي . .



مُكاشفاتُ عَمّي «جريْس»..

في لحظاتِ الودّ والمُكاشفة النادرة، كان عمّي «جريس» كريمـاً في أحاديثـه معـي، سـخيّاً في حكاياته وتجاربه الشخصية. قصدتهُ مُستقصياً إنْ كان القدرُ معي، أو ان كان ضدّي. بقـدر ثقتـي في مقدراتي الشخصية، إلا أنّ ركوني إلى استقصاء الحظّ والاستخارة، ومحاولة القفز إلى ما يختبئ في الأيام القادمة، يشكّل أساساً لهواجس ظلت تلازمني منذ سـنوات طويلـة. قـد يكـون تـردّداً، لكنه قطعاً ليس خوفاً أو انعدام ثقة أو ضعف في مقدرات أملكها عن يقين.

– لي من أصدقائي من له صلة ب«صِدّيق الشقيلي». .

– هذا عمّ «زينب» ، فيما أظن . .

ابتسمَ عمّي وقال :

– أراكَ قد جمعتَ معلوماتٍ ورتّبت دروسك وتهيّأتَ للامتحان . . !

– أتصوّر صعوبة المركب الذي اعتليت، والمخاطر التي تكتنفه. أعوّل عـلى مسـاندتك لي . . لكن أكثر ما أهمّ منه هو إقناع الوالد. .

– دع ذلك لي . أنا أعرف كيف أعالج الأمر مع أخي «سِمعان» ابن أبي «بطرس». .

– لكنك الآن على سفر . . ؟

كنتُ قد سمعتُ في الوزارة أنّ عمّي «جـريس بطـرس» مُرشّـح للعمـل بسـفارة السـودان في موسكو، والأمر ليس محض شائعة، إذ خرج النبأ إلى ردهات الوزارة ولاكته الألسن. خشيتُ أن ينشغل عمّي بترتيب سفره، فيتراجع اهتمامه بملف خطوبتي من حبيبتي «زينب». كم هـي بعيـدة موسكو من «المَسَالْمة» !

– لا . لا . سألتقي ب«صدّيق الشقيلي» قبيل سفري. أعدك أن لا أسافر قبل حسم الموضوع. الرجل صديقي كما تعلم ووالده «سلطان الشقيلي» من أقرب الصدقاء لوالدي «بطـرس» . لكـن قل لي : هل سمعت عن قصة زواج جدّك «بطرس» من «أم السعد»، ثم انفصالهما بـلا حيثيـات. .؟ لا يتحدثون عن القصة في البيت عندكم. هو والدي يرحمه الله ولا أجـد حرجـا في أن أطلعـك على قصته . أبوك «سمعان» لا يطيق السيرة !

– أبي «سِمعان» غير معنيٍّ بسيرة أهله. لم يحدثني يوماً عن جدَّتي «نزيهة» وهي أمّه، ولا يحفل كثيراً في الحقيقة بتفاصيل سيرة جدّي «بطرس». .

تبسّم عمّي «جريس» وأضاف:

– ليس لأبيك مزاج في التاريخ ولا في الشِعر. . !

تمثل لي جدّي شبحاً يحدّثني في كوابيسي ورؤاي، وسمعتُ منه ما أثار عجبي . أتذكر أنّـي، ومثلما يتوهّم النائم في أحلامه أنّهُ في قلب الواقع، رأيتُ جدّي وسمعتُ قصصه، وأمسك بيـدي يقودني إلى مصائر كانت تنتظرني في منعطفات ملأى بالمفارقات والمفاجئات.

– أوّاهُ يا عمّ. . أجدادي يأتونني في أحلامي ولا أكاد أميّزهم. .

– جدّك «بطرس» يا هذا . . أم جدّك «سِمعان» الكبير ! ؟

– نعم جدّي «سِمعان» الكبير، وأيضاً جدّي «بطرس» الشاعر العاشق، يا عمّ . .

إني أستنصحك يا جدّي «بطرس»: لقد رتّب لك القدرُ أن تكون لكَ «أمّ السّعد» حبيبة اصطفيتها من آلِ «حسان» في «حيّ العمدة»، وأنتَ من بطنٍ قديمٍ من بطون أقباط «حيّ المسالمة»، فكيف أصابك العجزُ واستسلمت لفتنٍ ومؤامرات حاصرتكما معاً، فلم تظفر بها زوجة، وكنت تحدّثني عن تسامحٍ وعن تعايشٍ مشترك، بين أسر المدينة الترابية. .؟ هل كنت ترسم لي من أقدارك أنت ، أقداراً أخرى تفاجؤني فخاخها في الطريق . تحاصرني خسارات قلبك المجيد، بعد عقودٍ وعقود. . ؟

في رؤاي تتحوّل صورة عمّي «جريس» إلى دخان يرحل إلى عنان السماء، ثم أجد نفسي ممسكاً بيدَي جدّي «بطرس» متودّداً، متجاهلاً في ذات الوقت أسئلتي اللاهبة، وقد استشعر لسع جمرها، وحرج الإجابة عليها.

لم يقل جدّي شيئاً، وكأنّهُ لم يسمعني، ولم يرَ حتى ملامحي في جلسته تلك أمام متجره، في سوق «أم درمان». الهندي العجوز «نيان» يرمقه مستعجباً لا يجرؤ أن يغيظه بالسؤال، ولكن «أنطون شرقي» يتجرّأ ويسأل السؤال عينه: كيف لم تحفظ «أمّ السّعد» إلى جوارك في تلك السنوات . .؟

في لحظة، رأيتُ الوقائع تجري أمام عينيّ شريطاً سينمائياً، لا صلة لي به. محض متفرّج أنا، غير معنيٍّ بسؤالٍ أو بإجابة. تختلط الرؤى بالوقائع فتأتي إليّ أصوات التاريخ وكأنّي أشهد ملابساتها ، مشاركاً فاعلاً متداخلاً، لا مشاهداً مهملاً في المقاعد الخلفية. .

(كرّر «انطون شرقي» السؤال الذي تصوّرتُ أني نطقتُ به :

– يا صديقي «بطرس»، لقد رتّب لك القدرُ أن تكون لكَ «أمّ السّعد» حبيبة اصطفيتها من آلِ «حسّان» في «حيّ العمدة»، وأنتَ من بطنٍ قديمٍ من بطون أقباط حي «المسالمة»، فكيف أصابك العجزُ واستسلمت ولم تظفر بها زوجة، وقد هجرت لأجلها زوجتك الأولى «النزيهة»، أم سِمعان؟

تبسّم جدّي بسمة محزونٍ، لا بسمة مهزوم . أرسل بصره إلى الأفق الغربي، ثم همس بصوت أكثر من خفيض، حتى لا يسترقَ السمع أحدٌ في الجوار، غير أنّي كنت بين الرّجلين الكبيرين، ولم يلمحاني أتلصص عليهما.

– اعترف لك يا صديقي أنّي كنت مشغوفاً بها ولوعا. ملكتْ عليّ دنياي، ولكن القدر كتب لي أن أفارقها لتزفّ لابن عمٍ لها، لم يكن في حساباتي أنّهُ منافس مُحتمل، وكنتُ أعدّ للاقتران بها جديّاً، بعد أن طلقت زوجتي الأولى. .

غمز صديقهُ الهنديُّ «نيان» بعينه مُمازحاً، وسأل في براءة:

– هوَ تردّدك يا «بطرس» الذي أضاع عروسك من بين يـديك، أم أنّ إمـام الجـامع عصـف برغباتك كلها حينَ ردّ حاج «حسان» على عقبيه، مـؤثراً الوقـوف مـع أعيـان الحـي، يتـزعمهم «سلطان الشقيلي» وقد تمسكوا أنّ دينهم، وإنْ أباح مشاركتكم طعامكم لكنه لم يقل بمشاركتكم نساءهم . . ؟

– ذلك تاريخ قديم تجاوزناه بالشعر وبالقصائد المُغنّاة، مالك تفتح الجراحات . . ؟ «نزيهة» السّمراء التي طلقتها بسبب «أمّ السعد»، لم تعش طويلاً بعد ولادة ابني «سِمعان». على كلٍ وبعد رفض آل «حسان» مصاهرتي لهم، عوّضني الرّب بزوجتي «ماريا» التي منحتني أبوّة متأخرة . .

– «جريس» ولد نبيه، وأمه «ماريا» كانت سنداً لك في السنين الأخيرة. .

يعرف الهندي أنهُ صار سودانياً في المدينة الترابية، وأنه صار إبناً من أبنـاء «وادي النيـل»، مثله كمثل «بطرس» و«حاج حسّان» و«أنطون شرقي» و«آل حامد» وآل «الشـقيلي» وبقيـة أهـل الأحياء المجاورة. يعرف الرّجل حدود المُمازحة وقد أدرك أنه لو مضى أكثر من ذلـك، لربّمـا ينقلب الشاعر القبطيّ إلى مغاضبة لا يرغب كلاهما فيها. يعرف جدي «بطرس» أن من بين الذين عارضوا موقفه في الاقتران ببنـت آل «حسـان» ، صـديقه الأقـرب «سـلطان الشـقيلي». دخلـتْ الأقاويل لتفسد الودّ بين القبطي ومَن يهوى، فاحترق بناء العشق على جدّي بعد أشهر قليلة مـن ذيوع قصتهما. .)

قلت لعمّي «جريس»:

- كان جدّي «دون جوان» حيّ «المسَالمة»، فيما أسمع من قصص. . !

- رحمَ الله أبي ! لا تجبرني أحكي لك أكثر مما سمعت . . !

لكنّهُ أضاف :

- كان قدوم «أمّ السّعد» إلى السوق، مناسبة ينتظرها جدّك «بطرس» بفارق الصبر. . يعرف الناس في الحيّ عن بنات «آل حسّان» أنهن جميلات بملامح جذابة. بشرتهن قمحية آسرة، وهنّ مشهورات بالعيون الواسعة. كتب جدّك «بطرس» قصائد في عيونهن، ممّا تغنّى بها «سرور» وطرب أهل الحي طرباً كثيراً لغنائه البديع في ذلك الزمان. كثيرون تغنّوا بحسن البنات المسيحيّات في مدينة التراب، ولكن جدّك تغنى لفتيات مسلمات من «المسالمة». جارة لنا سمّاها الشعراء «غزال المسالمة» أمطروها شعراً رائعا.

شاعر شعبي مثل «سيد عبد العزيز» ينثر الدّرر فى قصيدته الغنائية الخالدة : «مُداعِب الغصنِ الرّطيب» في حسناء مسيحية :

« في الروضِ غنَّى العندليبْ

وردّدوا غناهُ الطيورْ

ترتيل أناشيد الحبورْ

وفتياتها يوم عيد الصليبْ

دنتْ الثريا بقت قريبْ

زادن جمَال ونضار وطيبْ

يا مْداعِب الغُصن الرَّطيبْ . . »

في الجانب الآخر، كنّا نعرف وكانوا يعرفون، أنّ «بطرس» المسيحي ذابَ عشقاً في بنـت «آل حسّان» المُسلمة، ولكن لا يجرؤ أحد أن يقول ذلـك صـراحة، حتـى شـهدوه يتقـدّم لخطبتهـا، فيتردّد «الحاج حامد» في تزويجها له، لكنه آخر الأمر، وجد مخرجا لتبرير تردّده.

- ألم يكفّ عن عشقه النساء بعد أن فقد «أم السّعد بنت آل حسّان». . ؟

تبسّم «جريس» وتلفّتَ يُمنة ويسرة قبل أن يهمس:

- إسمعني يا «عزيز». . والله لولا خشية أبي من غضـبة الكنيسـة، وهـو مـن كبـار رؤوسـها، لتجاسر جدّك وتزوج بأكثر من امرأة. كان يرحمه الله، «دون جوان» حقيقيَ له قلب عاشق ، وكنتُ أراه جدّاً لي أكثر من والد. . أوه..لا يقدر أن يقف أمامه أحدٌ، إلا الأسقف!

في الحقيقة ما تناهى إلى سمعي في صباي في ذلك الحيّ عن جدّي «بطرس»، والد عمّي «جريس»، أنّهُ معتدٌّ بوسامته، ولا يكفّ عن ملاحقة النساء في السّر وفي العلن ولم تفتر همته وقد طعن في السن. كثيرات أغرمن به فيما سمعت من نساء في الأسرة. سودانيات سُمر. شاميّات شقراوات . قبطيات أجدادهن من «دمياط» ومن «قنا» ومن «أسيوط». ليس الدّين معياراً عنده في اختيار فتياته. لا يعاف جنساً أو قبيلة أو لوناً أو عقيدة. «النزيهة» جدّتي هي زوجته الأولى، والدة أبي «سِمعان»، أصولها البعيدة من «كردفان». أبوها قبطيّ قديم أقام بأسرته سنينا طويلة وسط قبيلة «الحَمَر» هناك. سافر«بطرس» ذات موسم بتجارته إلى الأبيض فعاد بها زوجة، ولكن حين عرف «أمّ السعد»، هجرها وانفصلا. .

لم يُخفِ عنّي عمّي «جريس» أن أبيه – جدّي «بطرس» – عاش قصة عشقٍ عاصفةٍ ، غيرَ أنهُ رأى أنْ لو كتب لقصة العجوز، أن تنتهي النهاية السعيدة، لما سمعنا بقصائده الغنائية، ولا تغنّى بها المطربون وسار بها الرّكبان في العاصمة الترابية. يظنّ كثيرون أنّ شعره قد فتح أبواباً للغناء الذي عرف لاحقا بغناء «حقيبة الفن». شاع في الناس أنه تحوّل إلى الإسلام في السّر، وأنه كان بذلك يمهّد للاقتران ب«أمِّ السَّعد» مِن أسرة «آل حامد»، لكنها كانت شائعة لم تعش طويلاً ولم يؤكدها لي عمّي «جريس». لم يكتب له الاقتران ب«أمّ السّعد».

برغم هذه التفاصيل المحزنة، يؤكد عمّي «جريس» أن جدّي «بطرس» حافظ على صداقته مع «آل حسّان»، ولم يؤثر فشل زواجه من «أم السّعد» على علاقته الرّاسخة بالرّجل. تخرج القصائد مِن متجر «بطرس» في قلب السّوقِ، ويذيعها المُطربون، ويعرف أهل الحيّ، أنّ العاشق هو «بطرس»، وأنّ المعشوقة هي «أمّ السّعد». يسمع «آل حسّان» ويطربون كما يطرب غيرهم من الناس في الأحياء المجاورة ، وكأنّ الأمر لا يعني إحدى فتياتهم.

قال عمّي «جريس» :

– أجمل غنائيات جدّك جاءت عن «أمّ السّعد». . شِعره مليء بالحزن والشجن، أجمل من قصائده الأخرى. . لكن يعرف الناسُ أيضاً، قصائده في مدح الرّسول الكريم ويحبّونه لذلك، وهو المسيحيّ الملتزم بكنيسته أيام الآحاد . .

أسمع مثل هذه القصص وينفتح عالمٌ أمامي مليء بآمالٍ عِراض. لكن لا أتخيّل نفسي أسير على خُطى جدّي، وأنا ابن أيامٍ لا تشابه أيامه، وعشت ظروفاً ليست مثل ظروفه. السياسة طوّحت بالبلاد إلى أقدار موجها متلاطم. خرج الإنجليز من هنا، والتبس أمر البلاد على مَن أدار شئونها بعد ذاك. الانقلابات العسكرية أدخلتنا أنفاقا لا نهايات لإظلامها القسري.

أتمعّن في أقداري، فلا أرى في الأفق الأبعد، إلا مصائر تزعج. ها هيَ «زينب الشـقيلي» تلـوح في تـاريخي القـديم وفي عمـريَ الحاضـر، وكـأنّي صـرت نسـخة ناقصـة الملامـح مِـن أجدادي،«السماعين» و«البطارسة» وانكساراتهم التاريخية. أحمل عشـقي إليهـا، مثلمـا حمـل «سمعان» الأوّل عشقه إلى «ماريان»، أو مثلما حمل جدّي «بطرس» الشاعر، عشقه المـؤود إلى «أم السّعد»، قبل أعوام غابرة. وقفتُ مثلمـا وقفـا، وذرفـتُ دمعـاً مثلمـا ذرفـا، ولم أتبـيّن إنْ كانـت ستلتقيني في المنعطفات القادمة، أم أني مفارقها فراقاً لا لقاء بعده، فتصيبني نوبة من نـدمٍ خـانق. تغنّيت بعشقي سرّاً، لم تخرج أغانيَ إلى أبعد من شفتيّ، ولم أرسلها مثلما أرسـل جـدّي «بطـرس» الشاعر، أغانيه إلى أسماع الناس ولم يُخفها. كنتُ الحفيدُ الذي يمشي على خُطـى جـدّه في السّـر. لكني أستنشق هواءً ليس مثل هواء سنوات الثلاثينات أو الأربعينات. من يدري والتاريخ يربـك الوقائع أمام ناظري فربما تكون «زينب» حبيبتي هي الحفيدة التي تمناهـا لي جـدّي في أحلامـي وخيالاتي. .

رأيـتُ آمـالي وقـد تعلّقـتْ بعرّابـي في العشـقِ، مثلمـا هـوَ عرّابـي في الدبلوماسـية : عمّـي «جريس». بدأتُ أحسب أيامي، يوماً بعد يوم، فيما جوانحي تحمل عشقاً لمحبوبة تقترب منّي، ثم سرعان ما تنأى. كنتُ في آخر أيامي في الجامعة قبل التخرّج، أحسّ بمسـاحةٍ مـن التراخـي في العلاقة، تتسع بيني وبينها. برغم ما لحق بعلاقتنا من عثرات وتقلبات، فإني ظللتُ عـلى تمسّـكي ببنت «الشقيلي». في ذلك شيءٌ من عنادٍ في الطبعِ جارٍ في دمي من أجدادي بلا شك،

ولكن أكثره اقتناعٌ بحماس عمّي«جريس» لمساعيّ الحثيثة والجادة للارتباط ب «زينب الشقيلي». بيت جديد، ليس له لمعاً كلمعِ بيوتنا في «المسَالمة»، سأدلف إليه بدفعٍ من عمَي«جريس» وبسندٍ أتوقعه منه.

قال لي عمّي في إحدى مكاشفاته الغامضة معي، قبيل سفره إلى «موسكو»:

– اسمعني يا «عزيز» ، إنّي أرى التاريخ يقف إلى صفّك. . !

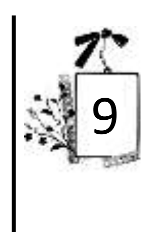
ثمّ انشغل عمّي وهو يعدّ لسفره إلى موسكو بأمور السياسة . كان يمضي الساعات الطوال في اجتماعات مع سياسيين كبار في وزارة الخارجية. المحاولة الإنقلابية الفاشلة ألقت بظلال كئيبة على العلاقات مع موسكو وموسكو لم تخف تعاطفها مع ضباط الإنقلاب الفاشل. ما حظيت بلقاء معه يزيد طمأنينتي في أمر خطوبتي من قريبة صديقه «صدّيق سلطان الشقيلي».

لكني لم أنزعج مطلقاً. ألم أسمع منهُ أن التاريخ يقف إلى صفّي. . ؟

كان تلميحه يحمل لغزاً لم أعرف له مفتاحاً لشفرته وقتها، لكنه كان مصدر طمأنينتي وراحتي. . في رسالة أرسلها من موسكو لوالدته وجدّتي «ماريا»، حدّثها عن كرَّاسات جدّي «بطرس» وأن عليها أن تستأمنني عليها. تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن كرَّاسات لجدّي «بطرس».

حين امتلكتُ الكرَّاسات، أدركتُ ما كان يقصده عمّي «جريس». لقد رأيتُ التـاريخ بالفعـل يقف إلى صفّي. .

بعد سفر عمّي بأشهر، وبعد أن وقع ما لم يكن في حسابات أحـد، كُتِـبَ لي أن أغـادر منقـولاً للعمل في سفارة آسيوية، لا تقل بعداً جغرافياً عن «موسكو». إليها، تأبطتُ مع أحمالي، كرّاسـات جدّي «بطرس». .



«جريْس» : خسائرُ مُتراكمة ...

عام 1972 هوَ عام حزني وأساي. . الشتاءُ القارسُ يصلح مشجباً أعلق عليه حسراتي.

كأنّ القدر قدْ رسمَ لي، يومَ أنْ التحقت بوزارة الدبلوماسية ، أن يخرج من بابها الآخر، عمّي «جريس بُطرس». تقبع المآسي بين مساحات الخروج والدخول. ذلك يوم حزين، لا ولن يبرح الذاكرة .

أنْ يهلك دبلوماسيٌّ في بلدٍ أجنبي، وفي حادثٍ مروري، لممّا يثير الريّب، وعادة تسير الأمور على نهجٍ مختلف، إذ على وزارة الخارجية في البلد الذي وقع فيه الحادث، أن تبذل قصارى الجهود وفق الأعراف، في التثبّت أن الحادث محض ترتيب دبّرته الأقدار وليس لأحدٍ مصلحة ما في هلاك ذلك الدبلوماسي. القصّة التي سمعتها في وزارة الخارجية هنا في الخرطوم، أنّ السفارة السودانية أجرت كل اللازم للتحقّق من أنّ القدر والقدر وحده هو الذي تسبب في الحادث، ولا أساس لما شاع في الوزارة من أن ثمّة شبهة جنائية حول جهة ما لها مصلحة في تصفية ذلك الدبلوماسي في السفارة السودانية، لسببٍ قد يتصل بفتور العلاقات بين موسكو والخرطوم ، إثر إنقلاب فاشل وقع في يوليو من عام 1971، زعمتْ مصادر صحفية أنّ مدبريه وجدوا دعماً من موسكو. يقول التقرير الذي بعثتْ به السفارة إلى رئاسة الوزارة في الخرطوم:

« . . أنّ الدّبلوماسي الأعزب «جريس بُطرس ميلاد»، كان في طريق عودته من أحد مسارح ضاحية «تفيرسكوي»، المنطقة التي يقع فيها مبنى السفارة السودانية في موسكو، وتأوي أيضاً عدداً من مساكن الدبلوماسيين العاملين فيها. «تفيرسكوي» هي الضاحية المميزة التي تحتضن مبنى «الدوما»، مقرّ البرلمان في العاصمة الروسيّة، كما تحتضن المسارح الشهيرة في موسكو. يقيم المستشار «جريس بطرس ميلاد» وحيداً في شقته، وكان يقود سيارته عائداً من مسرح «البولشوي»، حين وقع الحادث ولم يكن برفقته أحد، والطرقات كلّها مكسوّة بجليدٍ ثقيل، يصعب أن يقود أحدٌ سيارته فيه، إلا إذا كان متمرّساً على القيادة في مثل ذلك الطقس المخيف، ودرجة الحرارة تحت الصفر، أو إنْ كانت سيارته مزوّدة بإطارات شتوية تحمي السيارة من الانزلاق. ووفق تقرير الشرطة الروسية فإن «جريس»، القادم من بلاد لا تعرف الجليد، استسهل قيادة سيارته في ذلك الطقس المخيف، فانزلقت السيارة بعد أنْ فقد السيطرة عليها، إذ لم تكن مزوّدة بالإطارات الخاصة بمقاومة الجليد. ارتطمت السيارة بعمودين في الشارع العام، وانقلبت السيارة لأكثر من مرة.. حين هرَع المارّة وبعض من تصادف وجودهم تلك الساعة المتأخرة من الليل لنجدة من بالسيّارة، وجدوا «جريس بطرس ميلاد» جثة هامدة وقد فارق الحياة في التو، رأسه على مقود السيارة والدم النازف من أنفه غطّى صدره. .»

أطلعوني في الإدارة القنصلية في الوزارة، على نسخةٍ من التقرير الرسمي ممهورةً بتوقيع القنصل العام في السفارة السودانية في موسكو.

ماتَ عمّي «جريس» ميْتة مأساوية سوداء، في مساحات بيضاء من ثلجٍ ومِن بردٍ ومِن صقيع، وكان صعباً عليّ أن أصدق رحيله عن دنيانا، وأنا أكثر الناس حاجة لنصحه، أكثرهم حاجة للإفادة من تجاربه الغنية في وزارة الخارجية السودانية التي حبّب إليّ العمل فيها، هوَ ولا أحد سِواه. لا أعرف كيفَ غلبَ غضبي عليّ، ولم يكن حزني مجرّد حزنٍ على فقدِ عزيز أو دمعة أذرفها عليه. كنتُ أحسّ أنّ ثمَّة من يتربّص بي. ثمّة من يخطط لقطع الطريق عليّ، وأنا أخطو خطواتي الأولى في وزارة الخارجية. خرج من مسرح «البولشوي» ليموت في ثلوج «موسكو»، فيما الممثلون في المسرحية التراجيدية، أحياءٌ يرزقون، فأيّ مسرح ينتظرني أنا في المنعطفات القادمة، والخسران يحيط بي ويحكم حصاره، مثلما يحكم قطاع الطرق محاصرة القوافل الغافلة؟

ثمّة مَن يتربّص بي في جانبٍ آخر ليسلبني سند عمّي «جريس»، وأنا أوثِّق علاقتي بصديقتي «زينب الشقيلي». كنتُ قد اعتمدتهُ عرّاباً لي، يتولاني وأنا أخطو نحو «زينب»، كما هوَ عرّابي وأنا أخطو إلى وزارة الخارجية، دبلوماسياً ناشئا. مكتبة عمّي كانت ملتقانا، ومهبط عشقنا، وانكشافاتنا العاطفية أنا و«زينب». شهودُ المحبة في تلك الأمسيات التي جمعتنا، كانت مجلداتٌ عمّي القديمة في أرفف مكتبته، نلامس أوراقها فتتورّد في اهترائها وتزهر، وهي بين أصابعي وأصابعها. تولتنا المخطوطات القديمة التي خلّفها جدّي «بطرس»، بحنوٍّ موثّق، وكدنا أنْ نكون جزءاً مكتوباً في أوراقها المصفرّة وبين أغلفتها العتيقة.

ألحقتْ السفارة السودانية في موسكو تقريرها، ببرقيــة تعزيــة وجّهوهــا إلى الســكرتير الثالــث الجديد «عزيز سمعان» ، ابن أخ المتوفي «جريس بطرس سمعان».

أينَ أنت يا جدّي. . كيف أعزّيك وكيف تعزّيني في رحيل حبيبك «جريس». . ؟

كنتُ أنتظر عمّي في محطة فارقة.

وقفتُ على سبخةٍ متحرّكةٍ وقدمي تخونني. لم تفتح لي الدبلوماسية ذراعيها مُرحّبة بعد، فقــد ولّى زمان تقلّد فيه أقباط من ملتي، مناصب الوزارة في الحكومة، فصار أملي معقوداً ببقــاء عمّــي دبلوماسياً فاعلاً في الوزارة الخطيرة. كنت أستلهم تطلعاتي من طموحه، ونظــري إلى المســتقبل، من نظرته. رحل بلا إنذار، وتركني أتقلّب على نارٍ من الوحشة والعزلة التــي عشــت عمــري كلــه أتجنّبها، فيما قال لي حدسي أنها تنتظرني في مُنعطفٍ ما.

– طلب خليفة المهدي «عبد الله التعايشي» من الأقباط في «أم درمان» أن يختاروا أميراً عليهم ، تعتمده دولة المهدية، أواخر سنوات القرن التاسع عشر. .

ذلك ما حدّثني به عمّي عن تاريخ أسر الأقباط في «أم درمان».

– وهل فعلوا. . ؟ سألته أنا.

- أجل اختاروا واحداً من أقربائنا مِمّن عملوا في بيت خليفة المهدي. إسمه «يوسف ميخائيل» وسلّموه راية الأقباط !

كنتُ أنتظر عمّي في محطة فارقة. .

كنتُ أراه أميراً كبيراً من أمراء أقباط «المسَالمة»، غير أنّ الدولة ليست دولة المهدية التي انهارت تحت سنابك ومدافع الجنرال الغازي «كيتشنر» عام 1898. نحنُ بعد ستين عاماً يغادر البلاد المستعمرون، ونستظلّ بعهدِ حكمٍ وطني يتطلع لدورٍ كبير في البلاد وفي المنطقة. أما كان عمّي «جريس» أميراً في الدبلوماسية السودانية، مثلما تخيلته. .؟ هل كان لزاماً أن يهلك مثلما يهلك في التمثيل لا في الحياة، أبطال المسرحيات التي درج على مشاهدتها في مسارح «موسكو» ؟

يتردّد قلبي قبل أن يخطو نحو «زينب الشقيلي»، ثمّ أنثني أسأل عن عمّي «جريس». التقيهِ فأسأله، وأنا على وشك إكمال آخر اختبارات الدخول إلى السّلك الدبلوماسي:

- هل ترى في ارتباطي بفتاةٍ مسلمة، ما يعزّز من فرص التحاقي بالدبلوماسية. .؟

يلاقى صمتُهُ حيرتي، لكنّهُ يقول لي وقد استجمع رأياً غلّفه بدبلوماسيةٍ تطبّع عليها:

– هذه مدينتنا «أم درمان». . نشأنا بين أحيائها أطفالاً، وكبرنا صبيانا. تنفّسنا هواء أزقتها، وتشرّبنا بروحها السَّمحة. لا تحدّثني عن وظيفةٍ تعزّز ثقةً تعوزك . لا. . ! أنتَ عزيزٌ بدونها. عزيزٌ كإسمك يا «عزيز». أهلك في «أم درمان» يعرفونك «عزيز» حفيد «بطرس سمعان». يعرفونك «عزيز»، حفيد «سِمعان» القناوي الكبير الذي نزح من «قنا» إلى السودان، قبل نحو مائة وخمسين عاما. يعرفون قريبك البعيد «يوسف ميخائيل»، أمير المسيحيين الأقباط في «أم درمان» على عهد الخليفة التعايشي، حتى انهيار الحكم المهدوي في عام 1898. كثيرون يضعون ثقتهم في أهلنا هنا. هذا وزير الزراعة «وديع حبشي»، قبطيٌّ لا ينكر عليه أحدٌ «سودانيته». في الستينيات تولّى منصب مدير الشّرطة قبطيٌّ آخر من آل «سِدرة». للرئيس جعفر نميري مستشار قانوني مسيحي اسمه «يوسف ميخائيل بخيت». يا «عزيز». . ليس لنا أهلٌ غير أهلنا هنا . هذا التراب ترابنا . .

تلك طريقته في الإجابة على تساؤلاتٍ تتولّد مِن حيرتي، يلامسَ خلفية اللوحة ويكتفي بإشارات التاريخ، فلا يرسم بفرشاته خطوط التفاصيل، بل يتركها تندلق بقعاً متداخلة. ما حدّثني أبداً برأيٍ قاطع حول نيّتي الارتباط ببنت آل «الشقيلي». تلّمس هوَ على طريقته، رأيَ أهلها، ولكن لم اسمع منه ما ثبّط همّتي، أو ما زاد حماسي للارتباط بأسرة «الشقيلي». كان يهتمّ بدخولي إلى وزارة الخارجية، أكثر من اهتمامه بدخولي على أسرة «الشقيلي». لكنه وعدني قبل سفره أن يفاتح صديقه «صِدّيق سلطان الشقيلي». هل فعل . . ؟ لست أدري. .

– أنت أوّل قِبطيٍّ يلتحق بوزارة الخارجية ، يا عمّي. .

– لا تتهيّب الدّخول إلى وزارة الخارجية. هذه وزارة جديدة فتيّة، وأنت مؤهّل وتمتلك ميزات تمثيل بلدك، بما لا يجيده آخرون من رفقائك في الجامعة. . أنت تحدّثني عن وزارة الخارجية وكأنك تنسى أن عمرها لم يتجاوز عقد ونيّف من الزمان !

أحكم ربطة عنقه ثم واصل حديثه آمراً:

– نحنُ نبني دبلوماسية للسودان جديدة، تعال بسهمك إليها . .

– قلبي يتبعك، ولكن عقلي يقف على مسافةٍ من قلبي. . !

كنتُ أنتظر عمّي في محطة فارقة. الدمعة حارقة على خسارتي فيه.

بكيتُ ولم يسعفني صبرٌ على فاجعةِ رحيله المُفاجئ.

جدّي «بطرس »، أيّها البعيد. . هل تسمع أنيني وهل تحسّ بحسراتي وخسارتي؟

جاءوا بالجثمان مُسجّى في صندوق إلى الكنيسة، ما أتاح لنا رجالُ الصّحة المرافقون أن نفتحه لنلقي النظرة الأخيرة عليه. نظرتُ حولي، أقباط «أم درمان» جميعهم هنا، ونحن في قدّاس الوداع، فكأنّي في يُتمٍ مُطبق، ووحشةٍ وانعزال. وقف إلى جانبي صديقي «سليم شرقي». صديقي الآخر «ميلاد سيدهم» غاب في رحلة إلى جنوب السودان. بين الحضور في صحنِ الكنيسة،

وقف من جيراننا رجالٌ كثيرون من أهلنا في الحيّ، بينهم نفرٌ من آل «حاج حامد» وآل «جواد» وآل «حسَّان» وآل «سلطان الشقيلي»، وآل «أنطون شرقي» تميّزهم جلابيبهم البيضاء وعمائمهم الملفوفة بإحكام فوق رؤوسهم. آل «كومار» وآل «نيان» وحدهم الأكثر تميّزاً يعتمرون عمائم «السّيخ» الشهيرة. شاركونا الوقوف للصلاة داخل الكنيسة، ولكنهم صامتون في حزنهم على فقيدنا «جريس». بعد انتهاء الصلاة سمعتُ هَمْهَمتهم : آمين ، آمين. لاحظت مثلما لاحظ كثيرون، في لحظات الحزن تلك، أنّ «صدِّيق سلطان الشقيلي» هو الوحيد الذي فضّل البقاء خارج صحن الكنيسة، ولم يشارك بالحضور في القدّاس.

في سرادق العزاء الذي نصبناه في قلب الشارع القديم في حيّ «المسالمة»، جاء الشيوخ والصبيان والنساء. جلس آل «سمعان» في قلب السّرادق، يتلقون العزاء. في «المسالمة»- حيّ المسيحيين- وفي «حيّ العمدة» وحيّ «الرِّكابية»، يعزّي المسلمون والهنود والمسيحيون بعضهم بعضا، في فقدِ أيّ عزيز لديهم. بعضهم رفع يده في عفوية صادقة يقرأ «الفاتحة»، فنرفع أيدينا ونتمتم. تتوحّد الدموع في سيمفونية البكاء، فالحزن هنا لا يُمايز بين دينٍ ودين، ولا بين عمامةٍ عربية أو عمامةٍ «سيخ» هندية، ولا بين سروال وجلباب. لاحظتُ زملاء الراحل وقد تدافعوا إلى السرادق. دبلوماسيون كبار في أزياء أنيقة وربطات عنق لامعة، لم أتعرّف بعد على أسمائهم، أو مسمّيات وظائفهم، أو حقيقة مهامهم، لكنهم بادروا إليّ معزّين، وقد تبيّنوا أنّني السكرتير الثالث الجديد، ابن أخ المرحوم «جريس بطرس سمعان» . قدمنا لهم الماء البارد وفناجيل القهوة المُرَّة.

سمعتُ واحداً منهم يهمس لزميله ويرمقني بعينٍ حزينة، ولكنّي تبيّنت بوضوحٍ عبارته:

– أيكون هوَ «القبطيّ» الوحيد والأخير في الوزارة، بعد فاجعة رحيلِ عمِّهِ . .؟

أجابهُ الآخر، وقد أبعدَ عينيه عنّي:

– ليتهُ لا يكون الأخير. ستختلّ فسيفساء الدبلوماسية السودانية ، أليسَ كذلك. . ؟

هل موتُ عمّي إيذانٌ بموت شيءٌ آخرٌ، لا أكاد أدرك كنهَهُ، في تلك اللحظة تحديداً؟

حرّك فيّ حديث الدبلوماسيين وتهامسهما، هواجسَ قديمة حول جذورنا. جـذور أسـرتي. هـذا الذي يبحث عنه جدّي «سِمعان» القناوي، وقاده إلى السودان، هل تركه وراءه في «قِنا » في ديـار مصـر، دفيناً في جوف الصحراء مع آثار الفراعين الأوّل، أم تقصّاه عند ضفاف النيل، هنـا في «الخرطـوم» و«أم درمان» و«الخرطوم بحري». . ؟ الكنوز الدفينة لا تبحث عـن مالكيهـا، ولكـن التـاريخ يُحـدِّث عـن سُرّاقٍ نهبوا ما لم يملكوه، والتاريخ ليس مهمته إصلاح الحال، أو تعويض الغافل عن غفلته. لن يكـون للتاريخ دورٌ يشبه دور الشرطيّ أو دور الصيرفي. أتراني أكمِّل مسيرة أجدادي في بحـثهم المضـني عـن ذلك الذي خلفوه وراءهم ولا يزال بعيد المنال . . ؟

قال لنا أستاذ التاريخ مرَّة : لا تنسوا أن «ترهاقا» جدّكم جميعا . .

ترى مَنْ يَرى بين أهرامات مروي وأهرامات الجيزة، نَسَباً وقرابة . . ؟ يحتشد تاريخي هكذا بين الآثار الملتبسة. . ب«البطارسة» و«السّماعين». هُم أقباطٌ عرفوا النيل مأوىً لأحلامهم ولتطلعاتهم ولأقدارهم. . تماهوا مع تراب «أم درمان»، قبلَ أن يصير غباراً أو طيناً، أو قيظاً لافحاً قاسياً لا يرحم. . الذي يبقيني هنا، شاخصاً إلى التاريخ، هو ذات الذي أجبر مفتش مدينة «أم درمان»، الإنجليزي مستر «برامبل»، لاستثناء جدّي «بطرس ميلاد» من الترحيل القسريّ مع بقية المصريين المغادرين إلى مصر، بعد حادثة اغتيال «السردار السير لي ستاك» في القاهرة عام 1924، وما جرَّته من وبالٍ على كل مصري أو من له جذور مصريّة ومقيم في بلاد السودان.

قال الخواجة «جورج برامبل»، وقد تراجع عن قراره :

- «بطرس» . . أرى جذرك الذي في السودان، أقوى من جذرك في مصر !

أجل. صدقَ الخواجة مع جدّي. الذي يبقيني مستمسكاً بجذوري هنا، هو حافزٌ تاريخيّ يشدّني إلى التراب. إلى وجه الحياة البشوش في مدينتي «أم درمان».

ذات يوم جمعة وأنا بين مخطوطات مكتبته، أنتظر أن تطلّ عليّ حبيبتي «زينب»، قال لي عمّي وقد كان يعدّ لسفره إلى «موسكو»:

- هو التاريخ يقف إلى صفّك يا «عزيز» يا ابن أخي «سِمعان». .

خفقَ وجداني به خفقاً قويا. . لكن تواترتْ الصوّرُ إلى ذاكـرتي، تقفـز منهـا وإليهـا . رأيـتُ «سِمعان» القناوي الكبير و«سيدهم» و«الشـقيلي» و«حامـد» و«شـرقي أنطـون»، يخرجـون مـن «أسيوط» ومن «إسنا» ومن «قِنا» في صعيد مصر، في سنوات عجفاء بلون التـراب. . تـراب وادي النيل ومياهه المقدسة. عبروا قفاراً خالية من الحياة، إلى بلادٍ قادتهم إليها تطلعاتهم وأحلامهم. . وأيضاً أوهامهم. .



قُبَيْلَ الفِراق ...

أيقنتُ بعدَ رحيلِ عمّي أنّ الأرض ستضيق عليّ، وأنّ أقداري ستأخذني إلى آفاقٍ لن تجمعني أبداً مع «بنت الشقيلي»، وأنّ مهنتي ستفضي بي إلى عوالمٍ لم تكن في متناول خيالي مطلقا.

كان لقائي ب«زينب» عاصفاً، بعد أن وضع الحزنُ أوزاره، وجفتْ المآقي ورُفعتْ الدموع. خسارتي في رحيل عمّي «جريس»، فتحتْ عينيّ على واقعٍ لن أقدر على تجاوز عقباته. رأيتها غريبة، لا تعرفني ولا أعرفها. وقفتْ أمامِي تسألني في حيرة :

- هل أذنبتُ أنا لكوني انشغلت ببعض أمورٍ في جامعتي ، أبعدتني عنك . . ؟

جمعتنا مكتبة عمّي الرّاحل، مثلما اعتدنا أن نلتقي دوماً في أيام العطلات، وتوطّد أكثر تمسّكنا بهذه العادة، بعد رحيله. جئتُ إلى جدّتي «ماريا»، وهي على استغراقها في الحزن الشديد بعد رحيل عمّي «جريس»، إذ لم تمضِ إلا أسابيع قليلة على وفاته. جاءت «زينب» قبل صديقي «ميلاد». طلبتُ من جدّتي أن تعدّ لنا قدحين من الشاي. الأنس في بيت عمّي يريح الذاكرة المتعبة. كأنّهُ بروحه هنا، نراه بيننا . يحتسي معنا أكواب الشاي من يدَي جدَّتي «ماريا» الحانيتين.

كيفَ أجد قولاً يردّ حيرة حبيبتي «زينب» يقيناً بائنا، وأنا مستغرقٌ في تاريخي، مشغولٌ بمآلاتِ أقدار أجدادي، فيما عمّي الذي وقف إلى جانبي أو هكذا تصوّرت، رحل بعيداً في شارع مُعتمٍ في موسكو، ولفظ أنفاسه الأخيرة في أرضٍ غريبة، فوقها ثلوج وتحتها ثلوج ، ودينُ الرَّب غريبٌ فيها. . ؟

- كم أحزنني رحيل عمّك «جريس». .

- للمرَّة الأولى يغمرني إحساسٌ بيُتمٍ متعاظم. كم افتقده أنا . .

- كيف تقبّلتْ وزارتكم رحيله المأساوي. . ؟

سألتني «زينب» لتكسر موجة حزني. لفّنا الصّمت برهة. كنت أدرك عظم التحدي الذي أحاط بتجربة عمّي «جريس» في الالتحاق بوزارة الخارجية. . الوزارة التي تُمثل السيادة والإباءَ الوطني. كتمتُ زفيراً وحسرة، وخرجتْ كلماتي بصوتٍ غلبَ عليه الحزنُ ولوّنته المرارة:

- هو أوّل قبطيّ من أهلي يلتحق بالسّلكِ الدبلوماسي. . كان حريصاً أنْ يحمل بين جنبيه محبة الوطن، ولم يُعرف عنه ميلٌ لحزب أو اتجاهٌ سياسي. . خرج من مدرسة التسامح في حيّ «المَسَالمة»، متصالحاً مع تباينات الألسن والسّحنات والعادات، ليكون إضافة لدبلوماسية بلاده الفتية. .

كأنّي كنتُ أرى في حسرتي تلك، المصائر التي حَبلتْ بها أيامٌ مقبلة، عرضتْ لي وسترد في سياق قصتي التي أحكيها هنا، ممّا سمعت من عمّي وممّا أتاح لي من مطالعةٍ في بعض أوراقه وكراساته.

تركتْ «زينب» يدها ترتاح على يدي. تشابكتْ أصابعنا ولفّنا غيمُ المحبة .

قلتُ لها وكأنّي أواسي نفسي :

- كانتْ حسرتي بعد رحيل عمّي «جريس» حسرةً مزدوجة، فقد أحبطني رحيله، إذ عوّلت عليه في التمهيد لتوطيد علاقتنا، ثم هو أحزنني بتركي وحيداً، أدلف إلى وزارة الخارجية في الخرطوم، متفرّداً بعقيدتي، متفرّداً بإسمي الغريب، وبتكويني المُميّز المختلف. . لولا اصدقائي وزملائي نحن السكرتيرون الثوالث: «حسن» و«جمال» و«الصاوي» و«كوال» و«بعشر» و«حمراي»، و«عبد المحمود» الذين عرفتهم في ديوان الوزارة، لما طاب لي مقام فيها . .

- عمّك ليس مثل بقيّة الناس. شخصٌ لا يتكرر. . ستعوّضك الرفقة الجديدة فقده. .

كان عليّ أن أفاتح «زينب» بهواجسي:

- أرى في الأفق أموراً أزعجتني . . عمّك «صدِّيق» . .

أجل، كان لزاماً عليّ أن أخبرها بالذي همسَ به إليّ صديقي «سليم شرقي» ونحن جلوس في مقهى «الأغا» الشهير في سوق «أم درمان»، من أنَّ «صدِّيق سلطان الشقيلي» صار من الرِّجال المهمّين في تنظيم الإسلاميين في «أم درمان»، وأنه رآه بلحيةٍ مميّزة يشارك في اجتماعات الجماعة في دارٍ استأجروها قبالة مبنى «بلدية أم درمان» العتيق قبل مدّة، ممّا أثار ريَّبه. صديقي «سليم» لا يخفي عنّي شيئا. صديقي الحميم «سليم»، تدفقت حميميته لي من حميمية علاقة جدّه القديم «أنطون شرقي» مع جدّي «بطرس سمعان». كأنا استلهمنا هذه الصداقات القديمة ورفدناها بروح من تقارب جديد، فقد ظلّ يلازمني منذ سنوات الدراسة الأولى،

وما افترقنا إلا بعد أن التحقتُ أنا بجامعة الخرطوم، وآثر هوَ أن يكتفـي بالعمـل في محـلات جدّه القديمة في سوق «أم درمان»، ثم صار الآن من كبار رجال الأعمال. برغم تباين اهتماماتنـا، بقينا على صداقةٍ توثّقت مـع مـرور الأيـام. منـه أسـتقي الصـغيرة والكبيـرة عـن أحـوال «حـي المسالمة».

لم تجبني «زينب» على الفور وأنا أسـألها عـن عمّهـا «صـدّيق الشـقيلي»، وعمّـا سـمعته مـن صديقي «سليم». سحبتْ يدها وأصابعها، كأنها تخشى زائراً لا ترغب في رؤيته ثم قالت:

- لا أعرف يا «عزيز» شيئاً عن انتماءاته السياسية. . ولكن وبعد وفـاة والـدي، نصّـبَ عمّـي «صدّيق»، نفسهُ وصيّاً علينا ، وأمّي تحترم كلمته ولا ترغب في إثارة أية مشكلة معه. .

- كان الرَّجلُ صديقاً للمرحوم عمّي «جريس»، كما تعلمين. . كانا في المدرسة الثانوية معـاً، في ذلك الزمان القديم . .

كنتُ ألحظ أن صديقتي «زينب» لم تعد كما عهدتها. لم تعد تحـرص عـلى المجـيء إلى مكتبـة عمّي كما في السابق، وبرغم ذلك لم يخطر ببـالي أنّ «زينـب» سـتبتعد عـن حياضـي، أو أنّ المـدّ سيأخذها إلى لجج لا أعرفها.

– موتُ عمّي «جريس». . مؤشرٌ لفصلٍ جديد في الجوار التـاريخي بـين حارتنـا وحـارتكم، ونحن نعيش فصلاً جديداً في ساحة سياسية تعجّ بقيادات تقود البلاد إلى منعطف شديد الانحدار . . !

غضَّتْ الطرفَ في حسرةٍ وقالت:

– لقد كنتُ أحسّ منذ فترة، أن الأمور لن تكون كما عهـدناها في السـابق. السياسـة سـمّمت أجواء الحارات كلها. . لم يكن احتفال ليلة رأس السنة كما توقّعنـا وكمـا عهـدنا . للمـرّة الأولى أشعر أني غريبة في احتفال «المكتبة القبطية». كنّا قِلة من بنات الحـارة غيـر المسـيحيّات، وجئنـا نشارك صديقاتنا المسيحيّات اللائي كنّ أكثر حرصاً على حضور ذلك الاحتفال. .

– لا. لا. لن تخرج «أم درمان» عن طبيعتها . .

مضت الساعات ولم نهتم كثيراً لغياب صديقي «ميلاد» عن جلستنا في صالون عمّـي. افترقنـا قبيل ساعات المغرب، وبيننا الكثير الذي اتفقنا حوله والكثير الذي تجنبنا الخوض فيه .

كان لساني يلهج بشيء، وإحساسي يُخبىء شيئاً مختلفا. عجزت عن مصارحتها بمصاعب تحـول دون الإقتراب منها أو تعيننا لنشكل حياة جديدة معاً. أستشعرتُ تردّداً أقلقنـي بـل منعنـي أن أصـارح حبيبتي باستحالة مغادرتي لطائفتي لألحق بها قرينـا وزوجـاً، إلا إذا اعلنـت تحـوّلي إلى ديانتهـا. وقـف جدّها «سلطان الشقيلي» قبل عقود، يعـارض اقتـران جـدّي «بطـرس» ب«أم السـعد ». قصـة جـدّي «بطرس» تراوح في رؤاي ، ولا أجد الشجاعة الكافية لاعترف بعجزي وقلة حيلتي.

في لقائي الأخير بها لم أجد ما أقوله، ولم أستشعر ما قد يسبّبه سفري إلى الصين مِن فقد. سيباعد الزمن بيننا، مثلما ستباعد المسافات، وكان عليّ أن أفاتحها بسفري وأن في السفر سوانح لاستقصاء المشاعر، وأنّي على ثقة أنّهُ قد يقرّبنا بأكثر مما نظن. غير أنّي كنت كمن يهتبل السفر لمداراة شكوكه وتردّده وعجزه. كسرتُ الصمت بيننا وألقمتها نبأ نقلي للعمل في سفارتنا في الصين. مكتبةُ عمِّي والأمسية المطيرة والغيمُ شهود.

قالتْ في انبهار :

- لا . . لا . . أكاد لا أصدق . . ! الصّين مرّة واحدة ؟

تركتْ يدها علي زندي في عفوية الاندهاش الطارئ. هممتُ بكلامٍ لم أدرك تبعاته لحظتها:

- حين أخطروني ذلك اليوم بقرار نقلي ، لم أدرِ إن كنت سعيداً أم حزيناً.

- أكذا ترى مصائرنا وأنت راحلٌ إلى آخر الدنيا . . ؟

جالتْ ببصرها إلى البعيد ولم تقوَ على انتظارِ ردّي . .

- الربُّ كفيل بنا يا حبيبة . .

زاد انهمار المطر في الخارج والصواعقُ تحاصر السماء من فوقنا. يكـون الرَّحيـل بعيـداً هـو ملاذ مَن التبستْ عليه الرؤية، وطوّح به ظلام الارتباك. في آخر الأنفاق الطويلة، قد يلتمـع بـارقٌ فيدلّ على طريق النجاة. .

- سأغادر . . ولكن لندع الأمور تنساق على مساراتها . .

تهدّجَ صوتها وهي تعاتب:

- أتلقي سلاحك مُستسلماً قبل أن يبدأ القتال الحقيقي. . ؟

قلتُ لها وكأنّي أنطق عن هذيان :

- بين جدّي «سِمعان» القناوي الكبير وجدّتي «ماريان»، بيوتٌ شُيّدتْ وَبيَعٌ فُتحـتْ وحقـولٌ أثمرَتْ، وَصَوامِعُ عَمَّدتْ وسَمواتٌ باركـتْ، ثـمّ في المنعطفـات المصـيرية، تراجـع الغيـثُ إلى سحابهِ، وانكمش الرعدُ إلى جوفِ صواعقه. . واندسّ التاريخُ تحتَ التراب، فكانَ الانفراطُ بعد التماسك، والخروجُ بعد الدّخول. . لا أعرف كيف أشرح لك. .

قالتْ مُستعجبة مُستنكرة:

- عُدتَ إلى هلوساتك القديمة تلاعبني باللغةِ يا «عزيز». . ؟

- كلا . كلا. هو التاريخ داهمني في عقرِ داري وما استدعيته، ولا هو استأذنني قبل الدخول إليّ. . أنا صريعُ التراب الذي جئتُ منهُ. . أرى أقدار جدّي تُماهِيَ أقداري. .

لم تكفّ عن ملاحقتي بأسئلتها:

- متى تخفّف من هذيانك وتكلمني بلغةِ اليوم، لا بلسانِ كُهّان كنيستكم. . أنا قلقة على المصائر وأنت تحدّثني عن التراب. .؟

وقفت اللغة بيني وبينها واتسعت مساحات الإحباط، فصرنا غرباء في أفق لا نعرفه. .

فجأة هدأتْ السماءُ وسكنَ الرعدُ وشاعتْ طمأنينةٌ حقيقية، وكأنَّ الأرض قد رحلتْ بكلكلها إلى وعدٍ جديد. . وعدٌ ينتظرني في «بكين». .



«بكين» : ثلجٌ وتُراب ...

هاهيَ «بكين»، أبعد مكانٍ تصوّرتُ أن يبقيني على مسافةٍ من جُرحي الذي تركتهُ ورائي في «أم درمان». التاريخ الذي أحمله بين جوانحي، يتمدّد عبر أزمان سحيقة، وإزاء أقباطٍ جاءوا مع الفراعين الأوّل، أسرارهم مُقفلة تحت الحجارة، مدفونة تحت الرّمل. كنتُ أتصوّر أنَّ الحضارات القديمة هيَ مرتع عمري ومسرح أجدادي، وأنّ رحيلي من أرض النيل إلى أرض الصّين، هو رحيلُ العمقِ إلى العمق. أنا حلقة تحدّرتْ من أيام «بعنخي» ومن حضارات وادي النيل وإرث «ترهاقا»، سفيراً إلى حضارات الأنهار الكبرى في الصين. .«نهر اللؤلؤ». «نهر اليانغ تسي». «النهر الأصفر» . بلاد الديانات الشرقية القديمة . .

هاهيَ «بكين». . دخلتها بليلٍ واقتحمتُ شتاءها مُسلّحاً بحرارة صحرائي وجفاف عتمورها، ملتهباً من جمرِ مُدن التراب، خارجاً من نخيلٍ يشرئب إلى الشموس البعيدة، يَحبُل في طلعه برغدِ الثمار، وبعراجين مثقلة بالتّمر في سعفاتها. بين مساحات الرَّمل الشاسعة في «عتموري»، ومساحات الثلوج، وقد غمَرتْ حضاراتٍ عمّرتْ لآلاف السنين هنالك في آسيا ، وشائجُ من رؤى ومن خيالٍ ومن عشق. .

هاهيَ «بكين». .

ليسَ البرد وحده هوَ الذي سيمحو الجروح مِن الذاكرة الملتهبة، بل اللغة التي لا تشبه لغة أخرى، بخطوطها المتوازية والمتقاطعة، الأفقية والرأسية. لا شوْلة فيها ولا ضمَّة ولا فتحة ولا تنوين. الشتاءُ له صوتٌ وله فحيح وعواء والليلُ بهيم وأخرس. الأشجار الممتدّة على طول الطريق من المطار إلى وسط المدينة، أعوادٌ عجفاءُ مُعلقة بين أرضٍ بيضاء وسماءٍ داكنة السَّواد.

هاهيَ «بكين». . في آخر ثمانينات القرن العشرين . .

السفارة السودانية مثل بقية السفارات في «بكين»، مُحتجزةٌ وراء أسوارٍ، بقصدِ حماية الدبلوماسيين الأجانب، وحصر مكاتبهم ودور سكنهم في منطقة معلومة. هذا ما درجَ أن يقوله الصينيون في وزارة الخارجية لاقناع الدبلوماسيين الأجانب بجدوى هذه الترتيبات، ولكننا ندرك تماماً أنهم يحصروننا في رقعة مسوّرة، حتى تسهل مراقبة تصرفات الأجانب والغرباء، خاصّة إن جنحوا للاختلاط بعامَّة أهل البلد. في «بكين» الثمانينات، بملايينها العشرة، وبألوفها المؤلفة من الأجانب، لن تبرح إلا أن تكون تحت عيون راصدة وقرون استشعار عالية الحساسية والتوجّس. كلُّ الأجانب من دبلوماسيين أو غيرهم، أناسٌ يحوم الشكُّ حول حقيقة نواياهم. الأمّة التي ابتنت سوراً على الجبال الشاهقة، لا يقدر على اقتحام تخومها أعداءٌ متوهّمون، مثلما تعرف كيف تبتدع المعجزات من أرحام الخيال، لتحمي أقدارها من تغوّل الغرباء.

أتاحتْ لي السفارة السودانية، مثلما تفعل مع كلّ دبلوماسيٍّ جديد يفد إليها، ملفات تاريخ الصين وملفات العلاقات مع بلدي، الذي هوَ أول بلد أفريقي يعترف بالصين الشعبية. بعد سنوات مُثقلة بأعاصير الحرب الباردة، والصين مجروحة أطرافها بعد اختلالات الثورة الثقافية الحمراء، رحل زعيم الصين المؤسّس «ماو تسي تونغ»، ولكن الرجوع إلى جادة العقل يأخذ وقتاً وجهداً، كما له ثمنٌ باهظ، تُزهق في ثناياه أرواحٌ وتعبّأ سجونٌ بضحايا لا حصر لهم ولا عد. غيوم السياسة أراها بوضوح، وعليّ أن أتابع ما أرى وما يحدث. مهنتي تحيلني لوقائع طريفة، لم تخطر لي على بال.

لأنّي كنتُ الأعزب الوحيد فقد حظيتُ بمعاملة خاصة من طرف كافة أسر الدبلوماسيين السودانيين في السفارة. الإداري «حامد» والسكرتير الثاني «جمال» والملحق المالي «الياس» والملحق العسكري الجوّي اللواء طيّار «محمد نوراني». صديقي «بشير» نائب السفير، هو الأقرب إليّ من بينهم.

لكن هل يسدّ أصدقائي ورفاقي مِن السودانيين والدبلوماسيين الأجانب، في عاصمة الصين، بتراحمهم الزائد، ومحاصرتهم الحانية لحراكي، الطريق إلى صديقتي وحبيبتي التي تركتها ورائي في «أم درمان». .؟ الأفق الصيني في بكين مُغلق أمامي. دعاني أصدقائي الجدد في «بكين» إلى حفل في نادي الصداقة وهو الذي يؤمه الدبلوماسيون عادة وقليل من الصينيين والصينيات. هناك التقينا وكأنّي على موعد معها منذ تاريخٍ لا أعرف له بدايات.

الصبيّةُ الناضرة «هوا». .

كنتُ أدرك أن لا مجال لاختلاط عميق أولصداقات مستدامة، بين رجال أجانب ورجال صينيين أو نساء صينيات، ناهيك أن تنشأ بين رجل أجنبي أسمر مثلي، وامرأة صينية جميلة. نعم، جميلة ولكن مختلفة الملامح، بعيونٍ ضيقة وبشرة صفراء، وطبعٍ طفولي ساذج مثل «هوا». في مكان أتاحته السُّلطة على مضضٍ وتحت عيونٍ راصدة، لاختلاط مسموح مع أجانب، التقيتها هناك، وكأنّ التاريخ قال للجَمَل، قُم وادخل عبر سمّ الخياط.

الصبيّةُ الناضرة «هوا». . خرجتْ لي من دائرة المستحيلات الخانقة التي حاصرتني، ضـغثاً لم يكن له أثرٌ في آخر ما تواتر إليّ مِن أحلامي ورؤاي.

في حلبةِ الرَّقص المجنون، رأيتها، بوجهها الصبوح، مُشرقة كمـا البـدر في كامـل اسـتداراته. الفم مزمومٌ مثل خاتم، بشوشة ضاحكة تلثغ بلغتها بكلام له رنين قطع الخزف الصـيني، يتكسّـر في سطحٍ صلدٍ أملس. عيناها. . آه . ليست مثل عيون الأخريـات مـن الصـينيّات الـلاتي رأيـت. قالتْ لي:

- هل تشاركني الرقص. . ؟

عجبتُ لجرأتها لكني استسلمتُ وراقصتها.

- أهلنا من غرب الصـين. . نحـنُ الأقـرب إلى بـلاد فـارس. .الأقـرب إلى قوميـات الشـرق الأوسط . . ملامحنا تختلف عن ملامح بقية أهلنا هنا. .

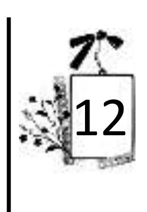
التقينا في «دار الصداقة مع الشعوب» مرتين وتآلفنا سريعا. فوق كتفي لا يزال خزي سنوات الخيبة وحصار الخذلان، وتصوّرتُ أني لا أبغي من الصبية الصينية غير متعةٍ عـابرة . غيـر غفـوة طارئة، لا تحمل في حساباتي درجة نجـاحٍ تبـرّر مـا لا يبـرّر. ظننـتُ أن محطتـي الصـينية تلـك، ستكون- وقد صاغتها الصدفة- محطة عارضة، أستأنِف سفري منها وإليها،

وأنا بجسدٍ مُنهك وأجنحةٍ مهيضة، حكمتْ عليه وعليَّ الأقدار الغلابة، أن أقترب من حـواف الرهبنة، ولا أعرف كيف يكون الطريق إلى قداديسها. لقد خلّفتُ مدينتي الترابية ورائـي، عشـقي ورائي وعدوتُ عدوَ الصوفي «بشر الحافي» وراء أشباحه وهلوساته، يطارد ظلّه بلا طائل.

تركتُ «زينب» وكلّ مَا علقَ بي مِن أوزارٍ ورائي، وقبرتُ مموّهاً ذكراها مـع المـوتى المنسـيين في مدافن «البكري»، في أطراف «حيّ المَسَالمة». في رابعةِ النهار، قرأتُ «الفاتحـة» عـلى قلبـي، وأغلقـتُ مصارعه، مثلما يقرأ المسلمون الفاتحة على موتاهم، وكأنّ المنافي صـارتْ ديـاري الجديـدة، بعـدها استفتحتُ أياماً زاهية في «بكين».

أوّاه منك أيتها الصبيّةُ الناضرة «هوا». . أوّاه منك. .

ترى هل تساعدينني لأغادر ديار التي أحببت وتركتها ورائي في «حي المسالمة». . ؟



تِلكَ الصينيّة «هُوا» ...

حفلُ رأسِ السنة في «بكين». .

الصبيّة الناضرة «هُوا». .

حلبةُ الرقص والأضواء الحمراء والصفراء والخضـراء، في «نـادي الصـداقة مـع الشـعوب» تضجّ بألوانها، ليسَ بعيداً من ساحة «تيان آن مِن» في قلب «بكين»، تبدو كالأرض المهجـورة، لا جذر لها في التراب، ولا أجنحة تحملها إلى سماء الحلم. أعادت لي هذه البقعـة «البرموديـة»، مـا غيّبته قسراً عن ذاكرتي، وحسبتُ أني برئت منه، واستفتحتُ دُنيا جديدة، تبعد ألاف الأميـال عـن مدينة التراب. هل أرى «زينب» هنا ، يتمايل جسدها البديع طربـاً مـع موسـيقى فرقـة موسـيقى «البوب»، في حفل رأس السنة أو «عيد الميلاد» في «نادي المكتبة القبطية»، هناك في « أم درمان». ؟ .

بريقُ الإضاءة يأخذ بالعيون، ويسلبني القدرة على استبصار الماثـل أمـامي في صـالة الـرقص الصينية، ويدفع بي إلى طرقٍ متعرّجة، وإلى سبلٍ هجَرَتْها الذاكرةُ في المدينة الترابية، وكأنّهُ الفـرار من خطرٍ داهمٍ، ومن كوابيس مُحدقة. وكمـا يفعـل السّـحرُ بـالعيون، رأيـتُ حبيبتـي «زينـب»، بوجهها المستدير، يشعّ بريقُ خديها وفمها المفترّ دوماً، بابتسـامة شـهيّة، طالمـا تمنيـت لثمـه وعضّ شفتيها، فما تيسر لي شيء .

«زينب الشقيلي». .

وقفتُ قبالة حلمي وتوجّستُ خيفة أنْ يتحوَّل كابوساً يأخذني إلى داخل أسوار «المدينة المُحرَّمة»، في قلب العاصمة الصينية «بكين»، حيث ينام التاريخ مُدثراً بأسمالِهِ الباليـة، أتمـلى في وقائعه، تمتدّ لآلاف السنين، وكأنّي أنظر في كرة سحرية من بلّلور، تنبؤني بما في رحمِ الغيب مِـن مُحدثات. .

حفلُ رأسِ السنةِ في المدينة التّرابية. .

الصالة مُشتعلة في «نادي المكتبة القبطية» في المدينة الترابية، وأنتِ معي وأنا هناك مُنتمٍ وغير مُنتمٍ. مَنْ يلتفتَ إلينا في هذه الليلة الصاخبة، والإضاءة خافتة، تُغـري بالمراقصـة الحميمـة. . ؟ مددتُ ذراعيّ إليك يا «زينب». كنتُ أتوق لالتصق بجسدك البهيّ، لأحتويك بـذراعيّ ورائحـة عطرك تملأ خياشيمي، وتزيدني حريقاً مدمِّراً على حرائقي وانهياراتي. يتقافز الفتيان والفتيات مِن حولنا، «رأفت»، «ميلاد»، «سمية»، «مجدولين» و«هاجر»، جزلين وكأنّي، وأنتِ معي، نحلّـق في غير مكاننا، بفرحٍ يطوّف فوق قلبينا لا يقربه حزن. لا أحد يلحـظ كيـف اقتربـتُ منـكِ، وكيـف تلامستْ أعضاؤنا. كيف أخذتك في حضني واحتواك ساعداي. لهيـبُ أنفاسـك يشـدّني إليـك، مثلما ينجذب الصوفيّ إلى إيقاع طبلٍ، يأخذ الإرادة أخذاً، ويقيّـدها تقيّيـداً إلى مـدارات التحليـق وصفاء المحبّة. الإضاءةُ في أخفتِ حالاتها. لا أحدُ يأبهُ مَن المُسلِم هنا،

ومَن المسيحي. مَن الذّكر ومَن الأنثى، والأبـدان توحّـدتْ وتناغمـتْ، وانبجسـتْ نـواعيرُ الفرح من بين فجوات الحـزن، تستشـرف بشـريات عيـد المـيلاد المجيـد، المُطـلّ خجـولاً في ساعات الفجر الأولى وثواني الظلام المغادر. مَن يكون الرّاهـب في خـيط الغسـق، ومَـن يكـون الفاسق في جُنح الليل، وقد استلقتْ بيوتُ الله، وانفتحتْ أبوابها للجميع. . ؟

صياح قلبي يطنّ بأذنيّ، وكأنّي لست أنا. .

- «زينب» . . كيفَ السبيل إليكِ والسيوفُ القواطعُ مشرعة فوق رأسينا . . ؟

مَنْ وضع السؤال على شفتيّ الرّاجفتين والليلُ جناح، والطريق ملتبسٌ والسماء بلا أفق . . ؟

جاءتْ إليّ صديقتي «هوا». .

صالة الرّقص مُشتعلةٌ في «نادي الصداقة الصيني»، والجليدُ مطبقٌ في ليلة رأس السنة، والبردُ قارصٌ فوق التحمّل. الليلُ معطفٌ واسـع نختبـئ تحتـه، والصـبيّة «هُـوا» تراقصـني في الصـالة بجنونٍ، وتمازحني بجرأةٍ، خِفتُ أن يرصدها صينيّ مُرتزِقٌ، مِمَـن لا يعجبـه أن يقتـرب أجنبـيٌّ أسمر إلى صينية صفراءِ البشرة، ملساء البدن، شهيّة كمـا الفاكهـة في مقتبـل نضـجها، فتثـور مِـن خباله، ثائرتُه. احتوتني ببدنها ونيرانه لاهبـة. الرّاهـب أغفـى في داخـلي واسـتكان للـدغ الرّغبـة وخدرها. تهاوتْ حبّات المسبحة وقد انفرط عقدها بـين خنصـري وبنصـري. كِـدتُ أنْ أطلـق ساقيَّ للريح، ولكن القيود تثقلني ولا مهرب لي إلا إلى «هُوا». يتلوّى الرَّاهب في داخلي مـن قلـقٍ لكنهُ لا يصحو . كِدتُ أن أبكي. .

في الدقيقة الفاصلة بين ساعةٍ وساعة، بين يومٍ ويوم، بين شهرٍ وشهر، بين عـامٍ وعـام، انهمـر الجسدُ إلى الجسد، ورفعتْ العصافيرُ مناقيرها بالغناء، وتداخلتْ ألوانُ الأضواء، فصارت ظلاماً مضيئاً، وانبجس فجر الرّغبة وطوّح بي وب «هُوا»، إلى حيث يعسر الرّجوع مـن زلزلـةِ الجسـد، ولا يملك الإنسان أن يقول ماله أو من أوحَىَ لهُ. لن أحتمل ضحكاً أكثر ممّا ضحكت منـه، ولا انجذاباً أشدّ ممّا أنا فيه، مع الصّبيَّة الصينية المغسـولة بمطـر مِـن رغبـةٍ، أسْـرَتْ ب«زينـب» إلى سمَاواتي، فآمنتُ ب«هُوا» في «مدينتها المُحرّمـة»، إذ أهـدتني هنـا صـورة خلابـةً ل «زينـب» في ملكوتها الترابي البعيد.

كنّا وقوفاً والغناءُ يخفت ضجيجه، والأضواءُ يخبو بريقها، ولكنهـا انكبّـتْ عـليّ واحتـوتني بذراعيها، وفي صخبِ الموسيقى، تمدّدتْ بجسدها السَّاحر فوق جسدي. سنديانة مـن «الجبـل العطري» في مُحيطِ «بكين»، ومِن دُخانٍ وطيبٍ وليونة، معجونة في حواري «المدينةِ المحرّمـة»، في قلب «بكين» القديمة، بروائح الشرق المُسكِرة، والأباطرة غائبون. كنـا وقوفـاً نتمايـل طربـاً، ولكن كدنا، والجنون المُطبق يحتوينا، أن نصيرَ جسداً واحدا، نهـراً يسـيل إلى نهـرٍ، سـراباً مـاؤه مُسكر، وأفقاً سماؤه متصلٌ بأرضٍ خراب، وببهاءٍ قاتل والسيوف قواطع.

نظرتُ حولي ومرايا المكان مُخادعة، وأنـا لسـتُ هنـا ولسـتُ هُنـاك. نَـذرَ الرّاهـبُ جسـده لقدّاس الشّهوة وأغفى، وما استكفى. سألتُ، وكأنّ السؤال تنزّل وَحياً :

– «زينب» . . كيف السّبيل إليكِ والسيوفُ القواطعُ مُشرَعة فوق رأسينا . . ؟

لم تصلني إجابة، فقد سلبَ الوهم سؤالي.

مضينا إلى بيتي سِراراً لا ترانا أعينُ الحرّاس في بوابات مُجمّع الدبلوماسيين في ضاحية «سان لي تون». أمسكتْ «هُوا» بيدي، وأشفقتُ من تعبي أنْ لا يشفي قلبي الضنينُ غليلَ حُبّها لي. أخذتني إغفاءة ورميتُ رأسي على صدرها وتعانقنا. ذهبَ الرّاهبُ بعيداً في غيبوبته. .

أمسَكَتْ «هُوا» بيدي وأشفقتْ عليّ هذه المرّة، لمّا رأتْ مّا اعتراني مِن اضطرابٍ، اهتزَّ معهُ بدني وتزلزلَ ثمّ استكان. صحوتُ مِن إغفاءتي، ورَمَتْ الصبيَّةُ الصينيةُ رأسها على صدري في حنوٍّ. تسمّعتْ بعضَ هذياني فأخذتْها رأفةٌ بي، واستراحتْ بجسدها عليّ واسترخينا معاً في استقواءٍ مزدوج ، فهَمَسَتْ في لغوها بلغتها الصينية وقد فهمتُ نصفه وضاع منّي نصفُه الآخر:

- علّمني يا حبيبي أن أهذي بمثلِ هذيانك هذا . .

رفعتْ كفّها إلى جيدها تتحسّس سلسلة تتدلّى من جيدها ، عليها صليبٌ ذهبي. .

ترى هل يُفتح لي في هذه البقعة البعيدة أقصَى العشق، تُظهره لي في الساحات والطرقات هذه الصبيّة الصينيّة الجميلة، ولا أعرف كيفَ اهتدتْ هيَ إليه في بلدٍ هيَ منهُ وليست منهُ، لا يتحمّس أهلوه لتأبّط مُلحقات الدّين أو تعليق أيقوناته على الأعناق، أو اقتناء كتبه المقدّسة في الحقائب . . ؟

قالتْ لي في اعترافٍ خجول :

- أنا مسيحيةٌ وملّتنا لا تتبع «للفاتيكان»، ولكن تقترب منها قليلا. . !

رمقتُها بإعجابٍ، ثمّ تعمدّتُ إغاظتها فهمستُ ممازحاً:

- نعم مسيحيّ أنا، ابتعدتُ عن كنيسة الشرق وتقرّبتُ إلى كنيسة الغرب، وأريدك أن تأخذيني يوماً إلى الكنيسة الكاثوليكية في «بكين». .

ضحكتْ الصبيّةُ وهمستْ بصوتٍ ناعس :

- كنتُ أرى على الدوام في ملامحك سِمت القدّيسين ، يا كاردينالي الحبيب . .

حدَّثتها عن جدّي الذي كان مسيحياً على طريقته وتزوج «ماريـان»، كريمـة أسـقف الكنيسـة الكاثوليكية «جورج مـانتوري»، وهـو المسـيحي الأرثوذكسـي ووجهـه إلى كنيسـة الشـرق. في الحقيقة كنت أستعيد حكايات سمعتها من عمّي الراحل «جريس». حكيتُ للصينية قصّة جـدّي بحذافيرها. كيف تزوج ماريـان بعـد عنـاء وكيـفَ اسـتولدها «مـيلاد»، والـد جـدّي «بطـرس» و«سعيدة» شقيقته، وهي التي رحلتْ في سنٍ صغيرة، بضـربة شـمسٍ أو هـيَ حمّـى السـحائي، في موسم صيفٍ حارق في «أم درمان». سمع ذووه في «قنا» بزواجه من ابنة أسقفٍ من غير طائفتهم، ولكنّهم عذروهُ، فقد ردّوا الأمر لاغترابه الطويل، وزهدهم في عودته من بلاد السودان إلى «قنـا». نسيَهُم فنسوهُ.

أثارت قصص التناقضات الطائفية انتباه «هُوا».

في مهجري البعيد، في هروبي القسري من تاريخي، تستعيد ذاكرتي وقائع تُعيد الحزن جارفاً إلى الوجدان. عمّي «جريس»، إنّي أفتقدك فقداً كبيرا . .

- كان عمّي يحكي لي قصصا وحكايات لا تنتهي عن أتاريخ أسرتنا بين مصر والسودان . .

- أفارقة . عرب. مسيحيون. مسلمون . أي خليط أنتم فيه!

حكيتُ لصديقتي «هُوا» طرفاً من قصّة عمّي «جريس». صداقتنا. مزاجنا المشترك. رحيله الفاجع في الحادث الذي أودى بحياته في موسكو. ثمّ - بلا مقدمات- دهمني صّداع مُزعج لا أعرف له سببا. تمددتُ على الأريكة أنشد راحة عصَتْ عليّ ، وطلبتُ من «هُوا» أن ترمي على بدني المُنهك وقد زادته الحرارة ضعفا، بعض الأغطية، برغم أنّ الجوّ معتدل في شقتي.

- أنت مريضٌ بحق يا «أزيز». . !

لثغتْ الفتاةُ بلسانٍ صينيّ مُبين .

- نعم. . سأستعيد صحتي ولن أستسلم لعلةٍ، مهما استحكم حصارها لبدني. . لن أستسلم. أجل لن أستسلم. .

وَضمَمتُ جسدَها البضَّ إليَّ كأنّي أخشى ذوبانه من حرارةِ بدني . .



سيوفٌ قواطعُ ...

– «زينب». . كيفَ السبيل إليكِ والسيوفُ القواطعُ مشرعة فوق رأسينا . . ؟

كلّما شحَذتُ همّتي حتى أقف أمامها، يطنّ السؤالُ، وكأنّ شيطاناً يرسم الحروفَ على شفتيَّ ولساني، بغير ما في خاطري. لستُ أنا من ينطق. في المدينة الترابية، وقف شاعرٌ اسمهُ «بطرس ميلاد سِمعان» وأنشد قصيداً فخماً في الرسول محمّد، ودعا مُسلمي البلدة أن يهبّوا بسواعدهم، وبما لديهم وإن كانوا فقراء مُدقعين، للمساهمة في بناء المسجد الجامع في البلدة الترابية. لم يطنّ سؤالٌ يستنكر ما دفعه لينظم القصيدة، وهو المسيحيّ ، ليمدح رسول المسلمين ويستحثّ مسلمي مدينته لبناء مسجدها الجامع. قلتُ لجدّي الشاعر «بُطرس» في هذياني، وكأنّي أخاطب عمّي :

– هل تأتي معي لتقرأ «الفاتحة»، كما يفعل المسلمون، وتطلب لي يد محبوبتي «زينب بنت الشقيلي» ، أما كنتَ نصف مسلم قبل عهودٍ، حين سلبتْ فؤادك «أمُّ السّعد» . . ؟

هل يردّك أهلها على أعقابك أيّها الهُمام، وقد مدحتَ رسولهم بأجمل ممّا مدحه شاعرهم «ابن الخليل» ؟ ولماذا أجبروك يا «بطرس ميلاد سِمعان» على لعقِ حسرتك وأنت الشاعر الفحل، فتنكر حروفك الجميلة وتسوّقها باسم مستعار ليتغنى بها مطرب باهر الصوت من «حيّ العرب» في مدينة التراب. .؟ بعد خمسين سنة، هل جال بخاطرك أن يأتي حفيدٌ لك ويرفع فوق الأسِنّة والرماح، ومن مكتبتك القديمة، مخطوطة الشِعر الذي نظمته في حسناء حيّ «المسالمة»، وفي غزلانه الشاردة . . ؟

«زينب». . كيفَ السبيل إليكِ والسيوفُ القواطعُ مشرعة فوق رأسينا . . ؟

– وأين أنت يا «سمعان » الكبير. . هل تعينني يا جدّي برأيٍّ قاطِع . . ؟

– قالوا لي أنّ السُّبل تقطعتْ بكَ ، أو أنك قاطعتَ الأسرة في ديارك الأولى. .

– أما حدّثوك أنّي صادفتُ في غربتي ما أغناني عن السَّفر إلى «قنا» من جديد. .؟

برز جدّي في أحلامي. أكاد أحسّه وأسمع أنفاسه. تبسّم وانشرحتْ أساريره، وأضاف قائلاً :

– دعني أحدّثك عن أوّل أيامي في بلاد السودان. كنتُ قد قدمتُ مِن «قنا» إلى البلاد بلا رفقةٍ تعين، سوى بعض أصدقاءٍ أشدّ تعاسة مِنّي، وسوى تاريخ أجدادي المُمعن تجذّراً في عمق السنين البعيدة. كنتُ في مقتبل العشرين، فتوّة أشقّ الصخر شقّا. ضاعت بعض سنوات عمري بحثا عن رزق تصورته هيناً ميسورا في بلاد السودان. بعد معاناة، التحقتُ بمدرسة الكنيسة الكاثوليكية الجديدة في «الخرطوم» معلماً لصبية مسيحيين. اطمأنّت دواخلي، واستقوى القلب بصحبةِ القسّ الطيب «جورج مانتوري»، فقد ضمّني إلى أسرته، في السّكن المجاور للكنيسة، وأقمتُ مُعلّماً للصِّبية هناك. .

– ألا تحدّثني عن جدّتي «ماريان». . ؟

– صبرُك عليّ، يا حفيد ! أقول لك إني سِرتُ إليها، كما تسير وتجري المياه على جدولٍ يحتاجها، فطلبتها من والدها فزوّجنيها بلا تردّد. البلاد قفرٌ وقتها، وعساكر الترك والمصريون، قد فرضوا سيطرتهم على الأمور في «سِنّار»، وما حولها في أواسط السّودان وشماله. شغلتُ أنا بتعليم الصِّبيةِ في مدرسةِ الكنيسةِ والأعوام طحنتني طحنا ، وما لاح من أملٍ في عودة إلى بلدتي «قِنا». .

– كُتبَ لي يا جدّ، أن أكون في بلاد في الشّرق البعيد. . نفذْتُّ بجلدي من أمور استغلقتْ عليّ في «أم درمان»، لا أعرف كيف أصوغها لك في عبارات، وبيني وبينك من السنوات والمسافات، ممّا قد لا يحتويه كتابٌ بين دفتين. . هل تراني أكون مثلك مأخوذاً بالحيرةِ والظنون. . ؟

– لن أحاورك يا بُنيَ بما يشبه ما صرتُم تسمّونه حوار الطّرشان، أو لعله مناظرة العُميان، لستُ أدري. . كنتُ أرى في أحلامي أن حَفَدتي سيخرجون إلى عالمٍ بعيد، سيتسع أمام تطلعاتهم بلا حدود، فيدخلون بيوتاً ويخرجون من بيوتٍ أخرى . تجنّبتُ أن التحق عسكرياً في كتيبة من كتائب «الدفتردار بك»، ولكن بعد أن انطوتْ حملات الانتقام والقتل المجاني، واستقرّتْ الأمور بعد زوال «الفونج» في السّودان أوائل سنوات القرن التاسع عشر، كان الطريق ميسوراً لهجرة تحقق شيئاً من طموحاتي. كان الجيشُ يبحث عمّن يساعد في ترتيب أمور الإدارة والصحّة والتعليم في بلادٍ فوضاها ضاربة أطنابا. .

ودّعتُ الأُسرة في «قنا »، وأنا على يقينٍ أنّي ذاهبٌ إلى رحلةٍ لا أرى أفقاً لعودةٍ قريبة منها. . قلتُ لنفسي إنّ الذي أتقصّاه في حياتي سألاقيه في مهجري، لا في مقامي الخاسِر في «قنا». ثم من قال إني أدلف إلى مجهول لا أعرفه . كلا. . ! «ترهاقا» حكم الوادي كله. تاريخي يمتد مع النيل ، الأزرق والأبيض، تنوعا وتبايناً لا يفرّق بل يجمع للوادي أطرافه.

بين الغفوة والصحو، تبيّنت عمّي «جريس بطرس»، يحدّثني عن جدّي«سِمعان» الكبير، وكأنه يقرأ لي من كرّاسة قديمة حوتْ تاريخه:

– أقول لك يا ابني «عزيز»: إنّ جدّك «سمعان» الكبير قد خفّف من متعلّقاته القبطيّة ، واقترب كثيراً من تقاليد الكنيسة الكاثوليكية. لا أعرف كيف نجحَ الأسقف في ضمّه إلى كنف كنيسته، لكن الذي أرجّحهُ أنّ جدك الكبير في غربته، لم يعد يحفل كثيراً بالتزاماته الدينية، فالكنيسة هنالك في مصر بعيدة عنه، وهنا مدرسته التي يُعلّم فيها أولاد العساكر المصريين والأتراك وبعض السودانيين، في عقر الدّار التي يقيم فيها. فوق ذلك تودّده إلى «ماريان» جرفه إلى الكنيسة الجديدة بكامله. آخر الأمر عقد عليها على سنة الكنيسة الكاثوليكية، ولكن بعد وفاة كريمته «سعيدة» لإصابتها بالسحائي، ضاقت عليه الحياة، فلم يُطق معاشرة جدّتي «ماريان» وقد كانت صعبة المراس وعصيّة عليه، فعاشا منفصلين حتى وفاتهما. طعن «سمعان» الكبير في السن، وابنه «ميلاد» والد «بطرس» أبي شبّ تحت كنفه . .

– ولأيّ كنيسة انتمى والدك «بطرس» . . ؟

– لم يكن يهتمّ بالموضوع . لحق بالكنيسةِ القبطية الجديدة في «أم درمان». .

تختلط الرؤى بوقائع تجري أمامي، تستدرج ذاكرتي وترجّها رجّا. يقف عمّي الرّاحل في أحلامي يناجيني وأناجيه.

كنتُ أعرف عن عمّي «جريس» زُهداً لا يخفيه في كنيسة الحيّ. لم أرهُ على حماسٍ للمشاركة في صلوات الأحد، ولا في القداديس، ولا في أعياد الميلاد. هل تحوّل كاثوليكياً خفياً وغيّر كنيسته ولم يقل لمن حوله ؟ لست أدري .

– أقول لك يا «عزيز» : الدّين هو الدّين . ل«أم درمان» تأثيرٌ علينا جميعا، فأنا لا أستشعر ذلك الاختلاف بين ملتنا وملّة الكاثوليك. «أم درمان» أسقطت عنا جميعاً : أقباطَ مسيحيين وأرثوذكس شرقيين وكاثوليك غربيين ، بل ومسلمين وهندوس، تلك السرابيل التي تميّزنا عن بعضنا البعض. درّسوكم في كلية الآداب عن الشاعر الانجليزي «روديارد كيبلينج» وحديث الشرق والغرب اللذين لن يلتقيا. الشرق والغرب يلتقيان حتماً في مُدن التراب على مقربة من أنهار النيل. تحت شمس المدينة الترابية الحارقة، ونحن صِبية نمضي إلى مدارسنا، تتخفى أبداننا تحت جلابيب فضفاضة، وترى أغلب الرؤوس ملفوفة بعمائم، حذر الشمس وضرباتها الغادرة، مسيحيين ومسلمين وهندوس ويهود. .

– هذا ما نحبّه في مدينتنا. ليسَ عيشاً مشتركاً، ولا تسامحَ بين مختلفين فحسب، ولكن نحن إلى تمازجٍ وانصهار . .

في الحقيقة قصدتُ استدراج عمّي إلى الالتفات لهواجسي حول حبيبتي «زينب الشقيلي». . أدركتُ لحظتها أنّهُ فهم مقاصدي . تجول عباراته في خاطري :

– هو التاريخ يقف إلى صفّك يا «عزيز» . . !

هيّا – إذاً – اعطني يا عمّ مفتاحَ شفرة كلامك وألغازك. .



هواجسُ الترابِ والثلوج ..

كما يعود شريطٌ سينمائي القهقرَى لنشاهد من جديد ما غفلنا عن رصده أول مشاهدة، فقد رأيتُ كما يرى الحالم ضِغثاً من حُلمٍ عابر، بل تراءتْ لي أيّامي وأيّامها في سنوات الدراسة في الجامعة، وقائع حيّةً تعرض لي في «بكين». يعرف صديقي «بشير»، وهو الذي يودّني من بين بقية أعضاء السفارة السودانية في «بكين»، أنّي أحمل حزناً كبيراً بين جوانحي، تعود خفاياه إلى المدينة الترابية. في قلب «أم درمان»، إلى «المسالمة» التي بقي جرحي فيها هناك، ينزف نزفاً لا يتوقف.

بسبب عزوبيتي التي ما فتئتْ تثير الرّيَبَ عندَ دبلوماسيين في البعثة، كلهم يقيمون برفقة زوجات قنوعات بالحصار الخانق في عاصمة الصين، كان «بشير» الأقرب إليّ من بينهم. وهو يشغل وظيفة المستشار في البعثة الدبلوماسية، نائباً للسفير. زوجته «سميّة» سيّدة طيبة، برغم أن ذاكرتي لم تحفظ تقاطيعها على أيامنا في جامعة الخرطوم ، لكنها نبشت طويلا في ذاكرتي لتؤكد لي أنها من ثلة «بنات الشاطىء»، وهنّ طالبات تكتلنَ في تجمّعٍ، تماهتْ عبره اهتماماتهنَ واشتهرن وسط الطلاب بتحاملهن على الطلاب الذكور. سألتني في براءة تستحث ذاكرتي:

– أتذكرك يا «عزيز» وأنت تجالس دوماً في «قهوة النشاط»، صديقتنا «زينب». «زينب الشقيلي». .

حاصرتْ السيدة «سُمية» ذاكرتي وما مِن مهرب لي .

- أها. . هل كنتِ تدرسين في كلية العلوم. . ؟

- بلى، لقد كنتُ الوحيدة من ثلة «بنات الشاطىء» التـي جـاءت مـن تلـك الكليـة. «زينـب» و«هاجر» و«سعاد» و«مجدولين» ، كنَّ بين طالبات كلية الآداب في جامعة الخرطوم.

ثم أضافتْ في مناكفةٍ بيّنة:

- أمّا أنتَ فقد كنتَ متعالياً لا تكـاد تعيرنـا انتباهـا، وأنـت في السـنة النهائيـة، ونحـن في أوّل خطواتنا في جامعة الخرطوم. .

تُبدي «سُميّة» عطفاً على حالي، وشفقةً لا تخفيها أمامي، تراني أمامها يتيماً مقهورَ الخـاطر في بـلادٍ يدبّ الناسُ فيها دبيب النمل، لا يأبهون بأحاسيسهم، ولا تجد للشفقةِ مكاناً في قواميسهم. أعـزبٌ أنـا وأقيم محاصراً وراء أسوار «بكين»، بين جدران شقتي الصـغيرة في مجمّـع «سـان لي تـون» المُسـوّر، حيث يقيم أو يُسجن - لا فرق- لفيفٌ من الدبلوماسيين الأجانب، جمعتهم الصّدفُ وحـدها في تلـك البقعة.

في أيامٍ كثيرة، يلحّ عليّ «بشير» أنْ أصحبهُ إلى شقته بعد انتهاء ساعات العمل في السفارة السـودانية، يُغريني بأنّ «سُمية» قد أعدتْ طبقاً مخصوصاً من أسماك صينية، لا تختلف كثيراً عن أسماك «البُلطي» الذي لا يجيد طهيه إلا «السُّبكيُّ» المشهور في سوق «الموردة» القديم في المدينة الترابية، فلا أملك إلا أن أستسلم لرغبته. مَن يقاوم طبقا من السمك «الأمدرماني» وقد تنزّل إليهِ في عاصمة الصِّـين البعيـدة. .؟

ما أنْ فرغنا مِن التهامِ الطعام الشهيّ، حتى غادرتْ زوجته «سُمية» إلى مطبخها. جلسنا أنا و«بشير» في الشرفة المُطلّة على الشارع الواسع، المأهول بالدرَّاجات الهوائية، وبعددٍ قليلٍ من السيّارات الحكومية. في الحقيقة أجد راحة في تلك الخلوة، وبيننا قناني الجعّة الصينية والمكسّرات مما يوفرهُ السوق الحرّ المخصص للدبلوماسيين الأجانب، نتسلى قليلا بلعب الورق، فيما لا يخرج حديثنا عن ظروفِ المُحاصرة التي نعيشها، ثم ندلف مباشرة للحديث عن عزوبيتي، وكيف أقيم علاقاتٍ أنثوية في ظلّ الحصار القائم . كيف أتنفّس والحصار يصادر رئتيَّ . .

– تعرف أنّ الصينيين إلى انفتاح ولكن . .

يضحك صديقي المستشار «بشير» وينظر إليّ ملياً وكأنه يفتّش في ملامحي عمّا يشي بأسراري التي أحاول أن لا أبوح بها إليه.

هل أحكي له عن «هُوا». .؟ هل يصدّق كيف كنتُ أراقص «هُوا» بجسمها الناحل المُغري ذاك، في «نادي الصّداقة» الملاصق ل«فندق بكين»، فتبحر بي إلى سِحرٍ مشهود تشاركني فيه بنتُ «الشقيلي». . ؟

– أخاف عليك من العسَسِ الصيني، إذا ما رصدوا زيارة البنت الصينية لشقتك . .

- أعرف كيف أخفيها في مقعد السيارة الخلفي. . هؤلاء الحرس على غباءٍ مُطبق. . كيفَ يتصوَّرون- ونحن عُزّاب راسخون هنا- أن نكون رُهباناً لا نعرف النساء . صديقي «صلاح الدين» الدبلوماسي في سفارة الكاميرون والأعزب الأكبر في هذا الفضاء الصيني الشاسع، سلمني أسرار ومفاتيحَ إجراءات السّلامة في حالات اصطحاب فتيات صينيات إلى المجمع السكني. مُجمّع «سان لي تون» معروف بتراخي الحراسة في بواباته . .

ابتسم «بشير»، ابتسامة مقتضبة وأضاف:

- أخشى عليك يا «عزيز». . ألم تسمع كيفَ أُعلنَ ذلك الإداري في سفارة أفريقية تعرفها، شخصاً غير مرغوبٍ في بقائه في البلاد، لأنهم ضبطوه يتحرّش بفتاة صينية في إحدى صالات «فندق بكين». .؟

- ولكن صاحبنا الأفريقي بالغ كثيراً . .

قال «بشير» :

- سمعتُ أنّ الخمرَ لعبَ برأسه، فلم يكتفِ بالتحرّش اللفظي، بل حشر كفّه يتحسّس أرداف النادلة الصينية، فبُهتتْ البنتُ وجنّ جنونها. صرختْ صراخ ملسوع باغته ثعبان جائع، فتجمّع حولنا عددٌ من عمال الفندق، وما إن تبيّنوا أنّ الرجل الأسمر يعمل دبلوماسياً في سفارة افريقية، حتى تملكتهم لغة عنصرية بغيضة لم تفلح احتجاجاتنا في كبحها، ثمّ سارعوا بنقل القصّة بتفاصيلها لمسئول في مراسم وزارة الخارجية الصينية في حينه. .!

- نعم . سمعتُ القصّة . .

ما كنتُ مضطراً لأسمع تفاصيلها من جديد من صديقي، فهي تفاصيل محرجة. لقد أعلنـوا الرجل «شخصاً غير مرغوب فيه» وفي لغة الدبلوماسية، هو الطرد الصُّـراح. لم تمهلـه الخارجيـة الصينية غير أسبوع للمغادرة النهائية. تناقل القصّـة الدبلوماسـيون في «بكـين»، وكانـت مصـدر تهكّمٍ على ذلك التحرّش النّهم من طرف الأفريقي، كما كانت مصدر شفقة على جهاز أمنٍ، بلغتْ به الحساسية تجاه الأجانب، إلى تلك الدرجة المتطرفة من ردّة الفعل.

أضاف «بشير» ضاحكاً:

- أخشى عليك يا صديق. .

- أحبّ دائما أن أكون صريحاً مع صديقي «بشير».

قلتُ له ممازحاً:

- ستعرف يا صديقي يوماً ما، الكثير عن صديقتي الصـينية. . لـك أن تهنئنـي عـلى حرصـي عـلى إبقائها بعيداً عن عيون المتطفلين، إذ لا أحد يعرف حتى الآن شيئاً عنها.. صـحيح . . أم أنـك تتصـوّر أنهم سيعلنونني شخصاً غير مرغوبٍ فيه كذلك؟

قهقه «بشير»، وقال ممازحاً:

– لا ، لم نعرف ولا أتخيّل الذي زعمتـه، إلا إذا قـررتَ أن تحـذو حـذوَ صـديقك الأفريقـي فيضبطك العسسُ الصيني متلبّساً تتحسّس في مكانٍ عام، ما تحت ملابسها الداخلية . . !

ضحكنا معاً.

فجأة وبلا انذار، دهمني الصّداع اللعين . كان عليّ أن أستأذن .

قال صديقي وهو يودِّعني عند باب شقته:

– «عزيز». . ثمّة خبر أريد أن أسرّ به إليك.

تمهّلتُ وأنا أخطو نحو باب الشقة، وقد غلبني الإعياء:

– نعم. . ؟

– سيزور «بكين» أكاديمي سوداني يُدرِّس في جامعة «نيويورك» في الولايات المتحـدة ، وهـي زيارة شبه أكاديمية وتم إحاطتها بشيء من السرية، والحقيقة لم يرغب الرجل في أن يعلـم السـفير السوداني بهذه الزيارة ، إذ لا صلة لها بالسودان أو بعلاقاته مع الولايات المتحدة .

– من يكون الرّجل . . ؟

– ليكن الأمر سراً بيننا. الرجل هو وزيرنا السابق في وزارة الخارجية السودانية، «بنجامين دينق» من جنوب السودان. كما تعلم فقد التحق منذ أكثر من عامين بجامعة «نيويورك» ولم تعد له علاقة بالبلاد، بعد وقوع الإنقلاب الأخير. .

– رتبتُ حفل غداءٍ معه، أنا وأنت والسكرتير الأول «جمال»، في فندق «الدّب الأبيض». سأؤكد لك الدعوة حال وصوله إلى «بكين». . ولكن ما بك تبدو متعباً. . ألم تعجبك مائدة «سُميّة» هذا اليوم. . ؟

– . لا . لا . داهمني هذا الفتور قبل يومين ، ولا أعرف له سببا. .

ودعته ورأسي يكاد أن ينفجر من الصّداع، ولكن ظلّ عقلي مشغولاً بزيارة ذلك الأكاديمي من جنوب السودان. تأبّطتُ دهشتي وإعيائي ومضيتُ إلى شقتي في المجمّع الدبلوماسي في ضاحية «سان لي تون».

حلّ الظلامُ سريعاً إذ هيَ أمسية من أماسي الشتاء الطويل، والنهارُ فيها قصيرة ساعاته. بعد أنْ غادرت شقة صديقي «بشير»، لذتُ بشقتي في الطرفِ الشمالي من المجمّع الدبلوماسي والصّداع لم يفارقني . كم موحش مجمّع «سان لي تون » هذا.

زارني الهذيانُ من جديد. عادني فيضٌ من الهواجس عن مدينتي التي تركتها ورائي، وبيني وبينها فراسخُ لا مجال لقياسها واحتساب مسافاتها. هوَ كالحلم ولا أعرف له وصفاً أقرب، والإعياء هدّ كاهلي واستعمر بدني وقد ارتفعتْ معه حرارة بدني. ابتلعت كبسولة مهدئة وغفوتُ. وكأنّي كنت أنتظر حلماً ساكناً في الذاكرة، رأيتُ «زينب». . «زينوبة بنت الشقيلي»، وقد خالطتْ ملامحُها ملامح البنت الصينية الجميلة. كانت «زينوبة» في أول أيام عشقنا، وهي خارجة من سنوات مراهقتها، على نحافةٍ ورشاقة، في مثل نحافة «هُوا»، وفي مثلِ بهاء جسدها المُشعّ بالفرح. أسرتني البنتُ بجسمها البضّ وبذكائها الفطري. لماذا عادتْ لي هذه الصوَّر القديمة وقد تراءتْ لي مع بنت «الشقيلي» قبل دهور. .؟ كيفَ، بكل اختلافات ملامحها، أقنعتني «هُوا» أنها تشبه بنت «الشقيلي»؟

نظرتُ مليّاً في تقاطيع البنت «هُوا»، فبدا لي أنّي أحدّق في وجهِ جدَّتي «ماريان»، وهيَ في سنوات صباها البعيدة، لا تحمل حنيناً يربطها إلى «قنا» التي جاء منها زوجها، ولا إلى «أسيوط» التي تنتمي إليها أمّها. وجه جدّي «سِمعان» القناوي طيفٌ يدور في حيرته، لا يدرك من غفلته، أنَّ الذي يبحث عنه، إن كان حقيقة أو وهما، لم يتركه وراءه «قنا»، ولن يجده أمامه في «حيّ المَسالمة». .

يختلط الواقعُ بهذيانٍ غلبَ عقلي وبدني. تهاويتُ إلى أحلامٍ وكوابيس خالطتْ حُمَّاي وصُداعي واستسلمتُ لها. .

كانت «ماريان» على حُسنٍ طاغٍ وعلى نحافةٍ مُحبّبة. سمعتُ من عمّي قصصا عن حضورها البهيّ في حياة جدّي. كانوا يلقبونها «بنت الرّاهب». امرأة تملك حجّةً ومنطقاً حين تحكي. تخشاها النساءُ ويرهبن سطوتها وأنفتها الزائدة. مع أن جدّي المسيحي لا يميل لكنيسةٍ غير كنيسة أجداده الأرثوذكسية. قبطيّ قح، لكن «ماريان» الكاثوليكية، بدّلت حاله بقوة شخصيتها، وقرّبته من عقيدتها. خرج من بيتٍ ودخل إلى آخر، بسلاسة من حَبْكِ جدّتي «ماريان» .

طافتْ بذاكرتي المُنهكة بنتُ «الشقيلي» . .

أيّ بيتٍ ترى كنا سندخله معاً. . ؟

بين أحلامي ورؤاي، تذكرت أيامي مع «زينب» في جامعة الخرطوم.

لم التفتُ بجديّةٍ لما لاحظته مِن انشغال بنت «الشقيلي» بالصَّحافة الحائطية في الجامعة. للوهلةِ الأولى حسبتُ أنّ ولعها بما يُكتب في الصحف الجدارية، هو محض غرام بجديدٍ طارئ، ملك قلبَ فتاةٍ تتفتّح على حرية نسبية في أجواء جامعة الخرطوم ، في سنوات السبعينات تلك. الصحف الحمراء فاقع لونها، جاذبة للصبايا القادمات من المدن الكبيرة. . شكّلت «زينب» الأم درمانية، وبسرعة لم أكن أتوقعها، بؤرة جاذبة لبناتٍ كثيرات قادمات من مدن بعيدة. مدن غير الخرطوم. صِرنَ صديقات لها . «إقبال السنوسي». «ليلى». «فطومة». «ست البنات». «ماري» .

«سعاد الحاج». لفيفٌ منضّدٌ من حِسانٍ خرجن من سنوات المراهقة والعزلة الأنثوية المجيدة، إلى براحِ الاختلاط البريء في جامعة الخرطوم. برغم خلواتنا الخجولة في «مقهى النشاط» داخل حرم الجامعة، نحتسي أقداح الشاي وأكواب الكولا وعصير الليمون، فقد أشعرتني «زينب»، أنها تسعد في مرافقة رفيقاتها من الطالبات المحافظات. كان الأمر طبيعياً في البداية، غير أني رأيتُ بنت «الشقيلي» تبعد عن حياضي، فرسخاً إضافياً جديداً كل يوم، فتوجّست من صديقاتها. .

لكنّي ها أنذا أقبع في ملاذي المُقلق في «بكين». .

حينَ أنظر إلى العسَسِ الصينيّ في المُجمّع الدبلوماسي في «بكين»، وكيفَ يضايقوننا حين يرصدون مرافقتنا لصبيّات صينيات، تطلّ عليّ ذكريات قديمة عن مرافقتي ل«زينب»، في أول أيّامها في جامعة الخرطوم. رفيقات «زينب» أخذوها بعيداً عنّي. كنّ عسساً، يتوجّسن من تقرّبي إليها، ويرمقنني بأعينٍ حذرة أربكتني. بلغ حرصهنّ على مرافقتها ومحاصرتها، مبلغاً كبيراً، وبدا لي بعدها أنّ مشاعر من الغيرة، بل معارك أجّجتها الغيرةُ، نشبتْ بيني ورفيقاتها في الجامعة. هجرتْ «زينب» طاولتنا المحبّبة في «مقهى النشاط»، وجنحتْ إلى مرافقة زميلاتها «بنات الشاطىء»، فكنّ عسساً حقيقيّات حجبنَ عنّي رؤية حبيبتي، وأنا في شهوري الأخيرة في الكلية وعلى وشك التخرّج .

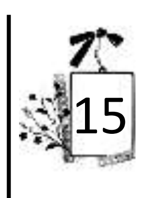
– عزيزتي «زينوبة». . ألا ترين أن الجامعة أخذتك بعيداً عنّي، إذ لم أعد ألقاك وأحدثك إلا في مكتبة عمّي . . ؟

لم تكن السياسة كوبي المفضّل، وقد آلتْ بنت «الشـقيلي» أن تنضـم لتيـارٍ سياسـي محـافظ، وترافق صديقاتها اللائي لا يملن- بسبب قـدومهن مـن مجتمعـات محافظـة نسـبياً- لمخالطـة الذكور من الطلاب. كانت السياسة هيَ القشّة التي كادتْ أن تقصم ظهر علاقتي ببنت «الشقيلي» في تلك الأيام الحاسمة .

ثمَّ كان رحيلي إلى «بكين». .

السكون يلفّ مجمعنا السكني في ضاحية «سان لي تون»، والظلام حالك.

غفوتُ من جديد، قبل أن أخرج من حُلمي، ومن حِمَى «بنت الشـقيلي»، وكـأنّي أخـرج مـن الدنيا برمّتها. .



مِن كُرّاسةِ عام 1925 ..

«بكين» وهي تدلف إلى السنوات الأولى من العقد الأخير. . في القرنِ العشرين.

أخيراً تذكّرتُ كرَّاسات عمّي «جريس». . الوحدة القاتلة في «بكين» أحيَتْ ذاكرتي، والعلة الطارئة منحتني وقتاً إضافياً، فضّلت أن أقضيه في الإطلاع. ثمّة أشياء لا تتضح ملامحها إلا إذا وقفتَ على مسافةٍ محسوبةٍ منها. مثلما كنا نضع نظارات سوداء ونحن نتطلع لخسوفِ الشمس في رابعة النهار، كنتُ أحتاج لحجابٍ يقف بيني وذاكرتي، وفي حاجةٍ لابتعادٍ مؤقت يقيني لفح الحيرة. لهجرةٍ بعيدة تعيد لي توازناً بعدَ اختلالٍ شملني لحظة فارقت مدينتي «أم درمان». لم أصادف في ثلوج بكين تراباً يعيد بهاء ذاكرة ترابية استنشأتْ تفاصيلها هناك. .

لم أتفاجأ بكرّاسات جدّي «بطرس»، مكتوبة بلغة شاعرٍ معتركه الخيال، وسلاحه الرؤى، وانتصاراته أحلامٌ بعيدة المنال. ما زلتُ أسترجع كلام عمّي الرّاحل «جريس»، يحدّثني عن قصصٍ كثيرة، زعم أنه سيحكيها لي عن جدّي. لكنّ الوعد الذي قطعه لي، تبخّر بوفاته المباغتة في الحادث المروري في «موسكو»، وأنا أطوي كتاباً مِن عمري، لا أعرف كيف أرتِّب صفحاته ومتونه. رحلَ عمّي في الساعة الفاصلة بين عهدٍ وعهد، بين لونٍ ولون. هذا الذي ارتفع بصباه إلى السَّحاب، سقطَ بين طيّات الثلوج في المدن البيضاء ، لم ترحم الأقدارُ انتماءه الراسخ إلى مدينة «التراب».

تراجع حبّي لبنت «الشقيلي»، منذ أيامي الأخيرة في جامعة الخرطوم، وانحسرَ انحسار المدِّ إلى الجزر، بحيثياتٍ التبسَتْ عليّ، وتركتني محتاراً متردّداً لأكثر من عامين. التحقتُ بوزارة الخارجية وكأنّي أدخل بيتاً قد دخلته من قبل. الذي سمعته من عمّي الرّاحل «جريس»، جعلني دبلوماسياً من منازلهم

، أشبُّ عن الطوق ولكن لا وجود لعرّابٍ يشدّ من أزري. شُغِلتُ عن حبيبتي «زينب» قليلا، ولكن كنتُ أدرك أنّ بريق العشقِ لن يخبو في دواخلي. بقدر فتور همّتي وتراجعها، فقد تضاعف حماسُ عمّي قبل سفره إلى موسكو، لمفاتحة صديقه «صدِّيق الشقيلي»، بشأن رغبتي في التقدم لخُطبة حفيدة «إبراهيم الشقيلي» الكبير. لم يكن إيماني ضعيفاً بالذي يجمعني بها، ولا بما تشرّبته في أحياء «أم درمان» التي رعتْ طفولتنا وصبانا، مِن عاداتٍ ألّفتْ بين أهلينا في تلك الأحياء. ولم يتضعضع وثوقي في عزم عمّي لكسب الجولة لصالحي. تركتُ آمالي في سلةٍ واحدة هي سلة عمّي «جريس». لم يكن وارداً في بالي أنّ سفره سيأخذه إلى سفرٍ أبعد. إلى سفرٍ فاجع.

– مَنْ كان جدَّهُ «بُطرس» المسيحيَّ القحّ، شاعر الغناء الشعبي في «أم درمان»، لن يصعب عليه أن يشقّ طريقه ليقترن بفتاة مُسلمة مِن «حيّ الركابية» أو مِن «حيّ العمدة». .

هكذا كان يحدّثني قبيل رحلته الخاسرة إلى «موسكو»، قبيل سقوطي في يُتمي الفادح بعد رحيله الفاجع. بقيتْ لي كرّاسات جدّي أتعزّى بها بعد الرَّحيل، وقد أوصى عمّي «جريس» في رسالة أخيرة من «موسكو» لوالدته الطيبة، جدّتي «ماريا»، أن تؤول إليَّ تلك الكرّاسات، فأتعرّف على جانبٍ لم يرهُ الناس، ولا يعرفه الغرباء عنّا، نحن آل «سِمعان»، وعن جدّي الرّاحل «بطرس ميلاد»، تحديداً.

فتحتُ الكرَّاسة الأولى، وقد كادَ ورقُها أنْ يتهرّأ من طولِ مكثٍ في أمكنة رطبة من مكتبة عمّي، أو في أحراز جدّتي «ماريا»، أو في مكمنها الأخير داخل حقائبي المحتشدة بثمين ذكرياتي وبغثّها .

في الصفحات الأولى من كُرّاسة جدّي «بطرس ميلاد»، وقد حملتْ تاريخاً يعود إلى عام 1925، رأيتُ التاريخ يخرج لي صوراً حدّثتني عمّا تخبئه الأقدار لي. . أيّ سرابٍ هذا الذي يحضّني على الهرب بعيداً عن عشقي، بعيداً عن ملاذي الآمن في حيّ «المَسالمة». . ؟ أهو نبض التاريخ الذي أوحى لي عمّي أَنَّهُ قد يقف إلى صفّي، أم هي عقبات تحول بيني والوقوف على عتبات بيتٍ جديد، ينتظرني في المنعطفات الصعبة . . ؟

اندفاع جدّي نحو «أمّ السّعد» ، كان بلا كوابح وبلا حدود. كاد جدّي أن يخرج من طائفته على نحوٍ مثير، وشمّر عن صمودٍ مُصادم، وقد وقفَ والده «ميلاد سِمعان» إلى جواره وكان عضده وسنده وحاميه، من غضبِ أعمامهِ أقباط «المسالمة» التقليديين. صمّم جدّي على خروجٍ من بيته المعنوي، مثلما كُتبَ لي أنا أن أخرج من بيوتٍ عدّة، انتميت إليها في أزمانٍ حرجة، وسترد تفاصيلها في الذي سأحكيه في أوراقي هذه . كتبَ جدّي قصّة نواياه لخروجه من بيته، وكأنّ ثمَّة مَن أوحى إليه أنّ حفيداً ستأتي به الأيامُ المُقبلة، يحتاج لأن يتعرّف إلى تفاصيل التجربة. يستلهم تجربة الدخول إلى بيوتٍ من أبوابها وهي لا تشبه بيته، ثم الخروج منها عبر أبوابٍ أخرى ونوافذ أخرى. لكأنّهُ رأى في خياله البعيد، أنّ حفيداً من صلبه، سيكون مسخاً مشوّهاً، نسخة مضطربة من جدّه الأوّل، ذلك الذي هاجر من «قِنا» قبل عقودٍ موغلة في القدم، روّضَ الجغرافيا فاصطاده التاريخُ. لا ينكر أحدٌ على النواميس صيرورتها من حالٍ إلى حال، ولا على الجينات تتنقّل من دمٍ إلى دم، لا يوقف جريانها زمانٌ مضطربٌ، ولا تلحق بكروياتها عللٌ في المسيرة الطويلة .

كتبَ جدّي «بطرس ميلاد» في كرّاسته :

(كانَ والدي «ميلاد » ابـن «سـمعان» القنـاوي الكبيـر، مُتـردّداً يقـدم رجـلاً نحـو الحـاج «حسّان»، ثم يؤخّر أخرى تجذبه نحو كنيسة القديسين. كنت عنيداً وإصراري لا يُرد. أعشق «أمّ السّعد» وما رأيتُ بديلاً عنها . لم يكن عصيّاً عليّ إقناع والدي أنّـي مـع إيمـاني بعقيـدة الأسـرة القناوية الراسخة في كنيستنا هناك، فإنّي قد اضـطر لإعـلان إسـلامي حتـى أظفـر بموافقـة «آل حسّان» على رغبتي في الاقتران ب«أمّ السَّعد». لا يهمّني من يريد أن يعتبر رغبتي هـذه، مغـامرة من باب التمثيل أو الإدعاء الكذوب . تعبتُ حتى أكسب أبي لجانبي. بعدها كـان عـلى أبـي أن يطرح حجته على الشيخ «حسّان».

دلفنا إلى بيت «حاج حسّان» في الطرف الغربي مـن حـيّ «العمـدة»، بعـد أن تناولنـا أقـداح الشاي، بادر أبي بطرح الموضوع.

تنحنح الرجلُ وقال :

– نحن قوم لا نُجبر نساءنا على أمر. . كلنا عباد الله يا «سِمعان». أحلّ الدين أن نأكل من ذبـائحكم يا نصارى ، فهل نمنعكم فتياتنا وقد تآلفتم معنا في «المَسالمة» . . ؟

– بارك الرّب كلامك وترحيبك بولدي «بُطرس». .

– ليطمئن قلبي، لا أشترط عليك يا صديقي«سِمعان» إلا أن تأتني برأي «حاج علي» المأذون . .

أسرعتُ إلى بيت مأذون الحيّ «حاج علي» من وراء ظهر أبي، وفاتحته بنيتي مصاهرة آل «حسان». كنت موقناً أنه سيندهش وأنه سيتردّد. ألمحتُ إليه أن موافقة آل حسان» رهينة بموافقته، وإني رهن إشارته، وإني متسامح معه عن كل ما بيننا من حسابات مُعلقة. فهم الرجل مقصدي وهزّ رأسه.

«حاج علي» اختاره مستر «برامبل» مفتش «أم درمان»، من قائمة «مآذين» أحياء المدينة الترابية، وكلّفه ليشرف في ضاحية «المسَالمة» و«الرِّكابية» و«العمدة»، على عقد الزيجات وتسجيلها في دفاتر الحكومة. كثيرون أنكروا على المفتش البريطاني هذا الاختيار. كثيرون لم تكن تعجبهم سيرة الرجل، وما شاع عن سلوكه من ولعٍ مريبٍ بالصّبيان، وعن أُبنةٍ لم تثبتها بيّنة، على أيّامه في كليّة «غوردون» في الخرطوم وهو صبي دون العشرين. برغم أنهُ كان من طلاب الكلية النابهين، غير أنّهُ قطع دراسته فيها بعد وفاة والده، فاضطر للعمل ساعياً في مكاتب بلدية أم درمان. أمضى سنوات طويلة من التمسّح بركاب الإنجليز . كان هو المسئول عن حصان المفتش الانجليزي «برامبل». يشرف على إعلاف الحصان، وعلى نظافته، بل ويتبرع بمرافقة المفتش في جولاته على أحياء المدينة الترابية، مهرولاً على رجليه أمام حصان المفتش الجموح. لا غروَ ان اصطفاه المفتش الانجليزي.

سلوكيات «حاج علي» في تلك السنوات الأولى قرّبته من المفتش «برامبل»، وبعد أن سافر إلى الأراضي الحجازية وعاد يحمل لقب«الحاج» المبجّل تبدّل الحال، ورأى المفتش الانجليزي ترقيته وإدراجه في قوائمِ السلكِ الكتابي في الإدارة ليكون مسئولاً عن دفاتر الزّيجات، وفي ذلك تقديرٌ لم يكن مُتوقعاً، واعترافٌ بأن فترة العامين التي أمضاها «علي»، يدرس أصول الشريعة الإسلامية في كلية «غوردون» التذكارية، على يد الشيخ «القليلاتي» اللبناني، لم تذروها الرياح. .

بعد يومين من لقائي السّريّ بالمأذون، رافقتُ أبي إليه.

كنتُ في الحقيقة على عجلةٍ أتطلع لحسم أمر خطوبتي لبنت آل «حسَّان».

فاتحه أبي هامساً – وكأنه تعمّد أن لا يصل صوته لمسمعي- يطلب منهُ أن يؤكّد أنّ الأمر ليس بعسير. كنتُ أعرف أن «حاج علي» سيستجيب لما نطلب. رفعت بصري إليه بنظرةٍ فهم مغزاها، ثم قال :

– إنّ الزواج ممكن بين المُسلمين والكتابيين ولا غبار عليه، كما أنك يا «سِمعان» تنحدر من أسرة خالط فيها المسلمون المسيحيين، وتزاوجتم بيضاً وسمراً، والتقليدُ عندكم راسخٌ ومقبول، فلا أملك نصحا لكما أنت وولدك هذا. .

تبسّم أبي وكأنّ هواجسه الكثيفة قد بددتها مزاعم «حاج علي» واجتهاداته الدينية، وكم سهل عليّ أن أسرّ بما لم أستطيع قوله من قبل، أو يأتي على لساني بيسر:

– إن سُمرة لون إبني هذا تقول لك عن أمّه التي أصولها من «جبال النوبة» في «كردفان» وقد توفاها الله. . ! نحن قومٌ على انفتاح . وإنّ إبني قد تزوج من قبل من امرأة كردفانية من خؤولته هناك، ولكن لم يكتب له نجاحاً معها. إن رغبته لمصاهرة صديقنا «حسان» رغبة خالصة صادقة.

.

– نعم . نعم، نصفكم في كردفان . سمعتُ قصتكم مع المفتش الإنجليزي الذي كاد أن يحكم بترحيلكم من السودان إلى مصر، بعد مقتل «السردار لي ستاك» في القاهرة سنة 1924 . لولا أصولكم «الكردفانية» لناحية الأمّ، لأجلاكم الانجليز ورحلّوكم مع بقية «الحلب» و«المولّدين» و«أولاد الرّيف» المصريين إلى البلاد المصرية، ولانقطع نسلكم يا حاج «ميلاد» من بلاد السّودان . . !

– نحنُ أهلُ بلد، ولن يجرؤ أحدٌ أن يبعدنا عنها. والدي نزحَ من مصر منذ سنوات الحكم «التركي» الأولى، قبل أكثر من مائة عام. نحن هنا قبل «المهدية» يا هذا. جذورنا رسختْ هنا. .

طفق والدي يحكي قصصاً على المأذون عمّا وقع للأقباط على أيام الدولة المهدية أواخر القرن التاسع عشر، وكيف أن الخليفة «التعايشي» أجبر أهلهُ الأقباط على النزوح إلى الخلاء الواقع غربي عاصمة الدولة المهدوية «أم درمان»، ليكون سكناً دائما لهم، فاتسعتْ رقعة الحيّ وصارت عاصمة صغيرة للنصارى في حاضرة بلاد السودان آنذاك، سمّوها حيّ «المسَالمة». حضّهم على اعتناق الإسلام ولكنه لم يرفع سيفاً ليقاتلهم على نصرانيتهم، وإن أجبر بعضهم على الإختتان. كثيرون «تأسلموا»، ولكن بقيَ قليلٌ منهم على عقيدته، يقيم صلواته وراء جدران بيته ، بعيداً عن عيون عسس الخليفة «التعايشي». .

قال المأذون وقد أحسّ بضيقٍ موقفه:

- الحكومة كما تعلم يا صديقنا «ميلاد»، تملك زمام الأمور . .

ازداد قلقي مـن تحـوّل الحـوار عـن موضـوع رغبتـي في الاقتـران ب«أمّ السَّـعد» بنـت آل «حسَّان»، إلى جدالٍ غير مُجدٍ في التاريخ وشئون الحكومات والإدارة الإنجليزية، خشيت معه أن تضيع قصتي برمّتها. خفتُ أن يناور المأذون فيمرّر «أجندته» الخاصة.

- يا والدي . . ألا يحتاج «حاج علي» لتلمّس حسن نوايانا . . ؟

فهمَ والدي ما أقصد. تنحنح وقد تذكر ما فاته، واتخذ سَمتاً جاداً، ثمّ قال في لهجة حاسمة:

- أنجز مهمتك عندي بالبيت يوم الجمعة القادم يا «حاج علي»، وهـو يـوم مبـارك عنـدكم، وسأرتب الأمر مع شيخ «حسّان». شيء مهم أخير: لا تسأل عن حسابك عندي إذ لا ديون بيننا، فقد تمّتْ تسويتها من طرف ولدنا «بُطرس»، فلا تخذلني. .

ثم أردف في لهجةٍ آمرة:

- سيدخل الولد على البنت في يوم السَّبت بإذن الرّب .

انشرحتْ أسارير الرجل، وأطلق ضحكة طويلة. وقف والدي متأهباً للمغادرة. وقفتُ أنـا لأرافقه . قال «حاج علي» وقد بانتْ نواجذه:

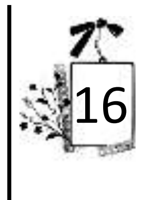
- أمرك مَقضيٌّ يا حاج «ميلاد». . !)

انتهتْ الصفحة هنا .

ما لم يكتبه جدّي «بُطرس» في كرّاسة عام 1925، وكان قد حـدّثني بـه عمّـي «جـريس» قبـل رحيله الفاجع، أنّ إمام المسجد وهو من «آل حامد»، جاء برأيٍ مختلفٍ عـن رأي «حـاج عـلي» المأذون، سانده فيه «سلطان الشقيلي» واقنعوا به حاج «حسان»، فأوقف بعده إجراءات خطوبـة جدَّي من «أم السّعد».

قال عمّي:

- سمعت من أبي شكوكاً حول موقف صديقه «سلطان الشقيلي» إذ أن لـه مـع«حـاج حامـد» بعض مصالح في سوق «أم درمان»، فمال يؤازره على حساب صداقته مع جدي«ميلاد سـمعان». جرى كلامٌ كثيرٌ، وتواترت حكايات مطوّلة، طالتْ سمعة «حاج علي»، وكثيـرون اتهمـوه بتلقـي رشوة لإجازة اقتران القبطيّ بالمرأة المُسلمة، وتداول الناسُ في الأحياء المجاورة، قصَّة عشـقٍ لم يكتب لها أن تتم ويتزوج البطل حبيبته. . مأساة كأنها جاءتْ مِن قلم «شيكسبير». .



حُلمُ عام 1926 ...

لا يَقبل الجدُّ «بُطرس» وهو الشاعر الهُمام، أن ترتدّ السّهام على صدره، وأن يقبل بحرجٍ يسببه رفض خطوبته من بنت «آل حسّان». أسمعهُ «حسّان» كلاماً معسولاً يعبر عن موافقة مبدئية، غيرَ أنّ الإمام «حاج حامد» هو مَن قارع القوم بحجّة أنّ الشّرع الإسلامي لا يُجيز زواج المسيحيّ من المُسلمة ، وأنّ الأمر ليس ميسوراً إلا إذا أعلن «بطرس» إسلامه وأشهره في مسجد الحيّ، إضافة إلى إجراءات معقدة أخرى لا أوّل لها ولا آخر، فيما زعم الإمام «حاج حامد» . قال «سلطان الشقيلي»:

- علينا أن نطمئن إلى إسلامه. .

جاءه الرّد:

- ولكنكم إلى ذلك، لن تدخلوا إلى ضمائر الناس ، وهذا شأنٌ بين العبد وربّه. .

قال «حاج حامد»:

- لابد من الختان . .

جاءه ردٌ آخر:

- أهو من أمر الدينِ أو أمر إذلال رجل بالغ. . ؟

قالَ لي عمّي «جريس»:

– إنّ جدّك «بطرس» أدرك أن إقدامه على تلك المصاهرة، سيقوده حتماً إلى وضعٍ مُحرجٍ، يجعله عرضة للمقاطعة من طرف أهله وعشيرته، وسيعقّد حياته من كل جوانبها. المصاهرات القديمة كتلك التي تمت بين أسرتي المسلم «حامد» والهندي «نيان»، لم تثبت كثيراً في ذاكرة الجيل التالي. تزوج «ناصر» ابن حامد من بنت «نيان» وهاجرا إلى الكويت ، وانقطعت أخبارهما عن أهل الحي.

بدا جدّي «ميلاد سِمعان» محتاراً إزاء تطورات وتعقيدات لم يعمل لها حسابا. .

قلت لعمّي «جريس»:

– كأنّ منافسات السوق شكّلت مواقف الرّجال في تلك السنوات . . !

– نعم يا «عزيز». . بدا الأفقُ مسدوداً بلا منافذ على والدي، وكان عليه أن يقوّم الوضعَ عبر معالجةٍ سريعة. .

لم ينتظر طويلاً، إذ سرعان ما تقدم لترتيب زواجٍ جديدٍ هذه المرّة، من امرأة مسيحية تقرب له، هي جدتك «ماريا». . أمّي أنا. . !

يعرف جدّي «بطرس ميلاد» كيف يكتب قصته، وقد تمرّس من قبل على كتابة شِعر الغزل ل«طمبارة» الطرب والغناء. في صفحات أخرى من كراسته، قرأتُ ما كتب جدّي «بطرس ميلاد» عن خطوبته المُجهضة من بنت «آل حسّان». تصوّر أنه سيجلس لتزفّ إليه «أمّ السّعد» وطفق يسرد القصّة بما أثار عجبي، ورأيت جدّاً لي بلغ شأواً في الكتابة لا يجارى. .

أدركت من السطور الأولى، لِمَ كان عمّي الراحل متردّداً في إطلاعي على كراسات جدّي لأبي «بطرس ميلاد».

كتبَ جدَّي في كرّاسة عنوانها: « **حُلم عام 1926. . أوراق سرية**»، ما رسّخَ عندي خياله الشّاعر وجنوحه للوصف الحسّي الموغل في الصراحة والوضوح:

(. . سأطلب أن يكون زفافي على عادة أهل الحيّ وتقاليد أهل بلدنا السودان، وأن تعدّ لي طقوس الزواج بما يشمل «القيدومة» و«قطع الرّحَط» وطقوس «حناء العريس» وليلة «الدُّخلة»، كاملة ، مثلما يعدّها القوم لبناتهم. سألزمهم بعمل تدليك لبدني لثلاثة أيّام، بالدِّلكة والخُمرة المصنوعة من عطور الهند وأوروبا، حتى يتعرَّف الناس على العريس، من رائحة عطره الفوّاحة مِن على بعد أميالٍ لا أمتار.

سأمتشقُ سيفاً تلك الليلة، وستأتي «أمّ السَّعد» تتلوّى في الرّقص، بصدرها العاري، وبنهديها المشرئبين في شموخ، لا تستر عُريها إلا سيور «الرّحط» الجلدية، وسيبدو فخذاها، بعد حمّام «حُفرة الدّخان» السّاخن، وغسلِ بدنها بعجينِ «الخُمْرة» وطيوبِ النساء، كعمودين من عاجٍ، يثير التماعهما حجر الشهوة، فتسيل الليونة عسلاً شهيّا. .

ستطربني زغاريد النساء، وهنّ يضربن الطبول، فمَن مثلك يـا «هـارون الرشـيد».. ؟ الغنـاء يطوّف في الأجواء. دفوف تكـاد تشـق الظـلام مـن حـول الزّحـام يقودهـا «أبوعـوَّة» ضـارب «الدلوكة» الماهر في المدينة، وزغاريد تنطلق من حناجر السّراري المغانيج السمراوات، وسياط تتلوّى في الفضاء، بأيدي من سينصّـبوا أنفسـهم «وزراء» للعـريس. سـأدعو صـديقي «محمـد الخاتم» وسيرافقني ابن خالتي «إدوارد» وأصدقائي «ميلاد» و«صالح» و«أنطون» ابن «شـرقي» الكبير. سيغتاظ صديقي «سلطان الشقيلي» ولن أهتم. سيتبارى الشعراء «ود البنا» و«العبـادي» و«ودالرضي» و«أبوصلاح». سيطربنا «زنقار» و«كرومة» .

سترقص «أمُّ السّعد بنت حسّان»، رقصَ من لا تخشى لومَ إمامٍ مُتزمّت مثـل «حـاج حامـد» البغيض، وهوَ يغضُّ الطرفَ عن عُريها، ولا زجرَ راهبٍ ظهره إلى الدنيا، تمالك أن ينظر الإثـارة تتلوّى أمام بصرهِ مِن جسدٍ مُشتهى، فما صبر ولا استغفر. «سِمْعان» بعيـدٌ عـن هـذا المحفـل. سيغيب الكبار بعيداً والشبان يتراقصون، وللطرب فضـاءٌ لا يُحـدّ. «محمـد الخـاتم» و«حامـد جابر» يتقافزان في رقصة «البُطان»، والسوط بيـدي، و«أنطـون» «يركـز» منتظـراً كيـف يتحمّـل «محمد الخاتم» ضربات السوط على ظهره . سيؤثر «رأفت» أن يبتعد عن حلبة «البُطان».

ستسلب لبّي عروسي الجميلة. حُلمي أنتِ يا «أمّ السّعد».

قلتُ لنفسي: لولا بقية من صبرٍ ومن حياء، لنلتُ وطري منها أمام الخلق، لا يزعنـي وازع. سأقطع «رحطها» وسيوره الجلدية بعدَ أن تجول كفيّ بمرمر فخذيها، والدفوف تعوي والنسـاء يولولن بالزغاريد، والفتيات يبحلقن مشدوهات .

هاأنذا أنتفض كمن به مَسّ. سيتهامُسُ الصبيانِ من حولي:

- جُنّ النصراني . . فقدَ عقله النصراني . . !

وساضحك مليّاً من صياحهم ، وأقول :

- أخرجتموني من بيتي مجنوناً وقد كنتُ عاقلاً، يا آل «حسّان». . !

ثمّ تهُبّ علينا «الهبوب»، فلا مصابيح ولا ضوء ولا غناء ولا رقص. كأنَّ مدينة التراب تنقلب على نفسها فتنفض ترابها ليبلغ عنان السماء، فلا يكاد البصر يرى شيئاً وحبّات الحصَى والرَّمل الدقيق تحشو العيون، والإظلام الترابيّ حالكٌ مطبقٌ والناس في حيرة وذهول. سأقف حائرا لا أعرف إلى أين أتجه، إذ الحيرة قد صاغتها إرادة بعض من حولي، وتآمرت معهم الطبيعة وأعطتني ظهرها. .)

طويتُ صفحات الكرّاسة، مستعجباً من جرأةِ جدّي، يخطّ أسراره في كتاب. وقفت طويلاً عند ذكر جدّي لإغاظة صديقه «سلطان الشقيلي». هو جدّ حبيبتي «زينب»، ثم هو يتهم الطبيعة والناس أنهم حاصروا رغبته وهزموه. .

هاهو قبطيٌّ قديم يقرّ في حلمهِ الطويل، أنهم أخرجوه من بيتٍ كان يظنهُ بيته ، ولا همّـه جنونـه أو عقله. عند الخروج، سألتُ نفسي أهيَ ملامحنا الملتبسة، أم هـيَ اختلافـات العقيـدة تبعثرنـا أيدي سبأ، حتى وإن كانت جـذورنا راسـخة في المدينـة الترابيـة لعقـودٍ تتالـتْ. .؟ كُتـب علينـا الخروج منذ مئات السنين إذاً. خروج «سِـمعان» الكبيـر مـن «قِنـا»، أورثنـا تاريخـاً يشـبهنا ولا يشبهنا. الخروج القديم لم يقدنا إلى دخولٍ مريحٍ إلى بلاد السودان. لكن كيف لي أن أتصوّر مصيراً يحيلني إلى تاريخ جدّي القديم، ينتظرني في المنعطفات الخطرة . . ؟

كُتبَ لي أن أغادر إلى أقصى بقعةٍ عن أرضـي ومـوطني. أن أحـزم حقـائبي إلى الصـين. بـلاد شخصتْ إلى التاريخ بحجارة سورها العظيم، مثلما شخصتْ حضارة أجدادي بحجارة ابتنوا بها إهرامات الفراعنة من «مروي» في السودان وحتى «الجيزة» في مصر. .

أيكون خروجي إلى تلك الأمكنة البعيدة، عزاءً ورحمة، مما قـد كُتـبَ لي أن ألاقيـه في مقبـل أيامي. . ؟

ألا يُحدّث القدر عن فراقٍ سِلميّ بين قلبي وقلـب «زينـب». . يماثـل فـراق «بطـرس» ابـن «ميلاد» ل«أمّ السَّعد» بنت «حسّان». . أم أن حكايات التاريخ تُناسِخَ وقائعها بين عهدٍ وعهد. . ؟



مِن المَسَالمة إلى كاتدرائية بكين ..

أصبحَ الصبحُ يا «هُوا»، و«بكينك» أبعد من «أم درماني». .

عليكِ أنْ تفي بوعدك لمرافقتي إلى الكاتدرائية الكاثوليكية الشمالية في «بكين». ذلك «المعبد المسيحي»- كما سميته أنتِ- هو مبنىً دائري شاهقٌ وقديم يقع في شارعٍ فرعيّ، يطلّ من الطرف الشمالي على جادة «وانغ فوجينغ»، شارع التسوّق الرئيسي في قلب العاصمة الصينية «بكين». فارقني الإعياء الذي هدّ بدني من سهرة البارحة بسبب فعالية المهدئات ومسكنات الألم، وعند الصباح كنتُ مُصرَّاً على القيام برحلتنا إلى الكنيسة البعيدة.

نحن في الأيام الأخيرة مِن شتاءٍ قاسٍ، شهدَ جليداً كثيراً، ولكنّهُ الآن في طريقه إلى التراجع والانحسار. فيما ولجنا إلى سيارتي أنا و«هُوا»، دهمني إعياءٌ وفتورٌ من جديد، يماثل الرهقَ الذي هدّني بسبب ما عكفنا عليه من عبثِ الليلة السالفة. هذه هي المرّة الثالثة التي يزورني فيها الألمُ المُمِض. الأولى كانت في شقة صديقي «بشير» والثانية ليلة أمس. أمسكتُ بيد الصبية الجميلة. لم يردّني التعبُ عن إصراري للمضي معها في الرّحلة إلى الكاتدرائية الصينية.

خرجنا من مُجمّع الدبلوماسيين في ضاحية «سان لي تون» بالحيلة التي تعلمتها من صديقي «صلاح الدين» السكرتير الأول في سفارة الكاميرون، فلم يلمح العسسُ الصيني في البوابة، جسداً صينياً واريتهُ تحت حزمة الملابس والمعاطف الشتوية الثقيلة، في مقعد سيارتي الخلفي . نحافة صديقتي «هوا» ساعدتنا في التمويه.

الشوارع الواسعة مليئة بأعدادٍ يصعب إحصاؤها من الدرّاجات الهوائية، وكان بإمكان سيارتي أن تعبر في سرعة عالية، ولكن الإعياء، وقد بلغ بـي مبلغـاً كبيـراً، دفعنـي للقيـادة بـبطءٍ وحـذر. أوقفتُ سيارتي بعد مسير نصف ساعة، في مكانٍ مخصّص للسيارات في شارع «وانغ فوجينغ»، ثم دلفنا راجلين إلى بهو الكنيسة الجميلة. «هُوا» بخطوتها الواسعة تسبقني وأنـا أجرجـر قـدمَيّ مـن إعيائي ، فلا أكاد ألحق بها.

رأيتُ في تقشّفِ أردية «هُوا» ما ذكّرني بنساءِ «حيّ المَسَالمة» مِن أهلي البُسطاء هناك: قميصٌ أبيض وبلوزةٌ زرقاء ومعطفٌ شتوي على كتفيهـا. لم أدرك تمامـاً سـبباً لارتباكهـا، حـينَ همسـتْ ونحنُ أمام بوابة الكاتدرائية:

- سأدخل من بابٍ وأنتَ من بابٍ آخر. لا أرغب في إثارة فضول الغرباءِ من حولنا .

وتسرّب من نوبة اعيائي، كلامٌ مازحتها به:

- ترى ماذا سيظنّ الأسقف إذاً . . ؟

- سأدّعي أنّي مكلفة من السفارة، أرافقك كمترجمة . .

ضحكتُ ضحكةً مقتضبة واهنة، ولكنّي أحسسـتُ بتردّدهـا وخوفهـا، كأنهـا لم تفهـم مغـزى مزحتي. .

لم أرَ اختلافاً كبيراً بين هذه الكاتدرائيـة الصـينية القديمـة، وكاتدرائيـة «القـديس متـى» في الخرطوم والمطلّة على نهـر النيـل الأزرق. جلـتُ ببصـري عـلى السـقف فتـذكرتُ الجـداريات القديمة التي أعرفها، برغم ما تركتْ حضارة الصـين مـن بصـمات جليـة. تـذكرت جـداريات كنيستنا في «حيّ المسالمة».

غفوتُ في لحظةٍ خطفتني إلى مدينتي الترابية. وقفَ عمّي «جـريس» أمـامي يسـألني مبتسـماً كعادته:

- هل تخفي عنّي ميولك لكنيسة جدتك القديمة يا «عزيز» . . ؟

- هي أقدارنا يا عمّ، أن ندلف إلى بيوتٍ لا تعرفنا، ونخرج منها قبل أن تعرفنا. .

ثم طفقَ عمّي يحدّثني عن جدَّتي «ماريان»، فحكى:

(جلستْ «ماريان» ذلك اليوم إلى والدها الأسقف وقد قررتْ أن تواجه أقـدارها لوحـدها. الأسقف «جورج مانتوري» هو الآمر والناهي في الكنيسـة الكاثوليكيـة، ولكـن «ماريـان» هـي الوحيدة التي تملك قرارها في بيت أبيها. لم تغب عـن ملاحظـة الأب تلميحـات ابنتـه في نيتهـا الارتباط بالمعلم القبطيّ الغريب القادم من «قنا». حين فتح له بيته وارتضى أن يأويـه في سـكنٍ منفصل في الكنيسة ، أدرك أنّ المعلم «سمعان» الأرثوذكسي سيصير جزءاً مـن أسـرة الكنيسـة، وليس مُعلّماً للصبيان فحسب. رآه أكثر من مرّة يجالس ابنته «ماريان» وما رابـه شـيء. الرّجـل أعزبُ وحسن السلوك، ولا شيء يقلق «جورج» إلا اختلاف كنيسته عن الكنيسة القبطيـة التـي ينتمي إليها «سِمعان». قالت «ماريان» تحدّث أباها في لهجة واثقة:

- لا شرقية ولا غربية ، فالعبادة هيَ للواحد الأحد. .

- لن تفهمي يا بُنيتي، دقائق الإختلاف . . لا أملك أن أردّ لك طلباً، ولا لإبني «سمعان»، لكنّي أخشى على ما سيحلّ بنا جميعاً من تبدّل في الأحوال ، والبلاد التي نحن فيها ، لا تبدو مرحّبة بنا. . عليّ أن أقنع أمّك والحجّة تنقصني. .

في خاتمة الأمر، حقّق الأسقف «جورج مانتوري» رغبة بنيته «ماريان». .)

تصوَّرتُ أني سمعت هذه القصّة من عمّي «جريس» ، أم لعله قرأها عليّ من كرّاسة من كراسات جدّي «بطرس» . . ؟

أصواتُ التاريخ تأتي إليَّ من حيث لا أحتسب، فيما بدني يشتعل من الحُمّى .

جلسنا على المقاعد الخشبية العتيقة في الكاتدرائية الصينية، وشاركنا في الصلاة. التراتيل باللغة الصينية لم أدرك معناها. كنتُ الغريب الوحيد، تلسعني العيون من حولي برغم انشغال أصحابها بالتراتيل.

«هُوا» . . تسلل الدّينُ إلى قلب الشيوعية ، فما لكِ من مهرب . . !

لكنّ بيتك يا «هوا» لن يكون بيتاً لي. لسانكم يستغلق أمامي. معابـدكم ليسـتْ كمثـل معابـد طائفتي وأهلي، أولئك الساكني «دمياط» و«أسيوط» و«قِنا» منذ أول التاريخ، وربّمـا قبـل حلـول الفراعين في وادي النيل، ولن تكون مثل معابد أهلي الأقربين في المدينة الترابية. .

في قدّاس الأحد، تراءتْ لي في تلك الكاتدرائية الصينية، حبيبتي «زينـب». أطـلّ وجههـا مـن الرسوم الجدارية يستفهمني : أينَ أنا ؟ أيـنَ وعـدك لي يـا مَـنْ ملكـتَ قلبـي وهجرتنـي وأنـا في صحرائي وحدي بلا زاد وبلا رفقة، وغادرتَ إلى آخر الدنيا. . ؟

تشرق الأسئلةُ مثل شموسٍ ساطعة، وعقب ليلٍ بهيم. . أم هيَ هلوسات الحُمّى. .؟

كيفَ السّبيل إليكِ والسيوفُ القواطعُ مُشرعة فوق رأسينا يا «زينب». . ؟

الجدارياتُ في خطوطها وألوانها الزاهية من حولي، لا تجيب إلا – ربّما - بلغةٍ صينية لا أفهم تعابيرها جيداً.

لم يكن سؤالي يُراوح في بريَّةٍ بلا أفق، أو يُحلّق في فضاءٍ مُهمـل. بـرغم استسـلامي لأقـداري، بعد رحيل عمّي وعرّابي «جريس»، قررتُ دونما كثير تفكير، أن أهمل علاقتي بالبنـت «زينـب»، وأن لا أناور أو أغامر أو أمضي في طريقٍ يربطني بها. لكن كيف أصارحها وأكسر قلبهـا الرهيـفَ بما انتويته. . ؟

بدأتُ أرى بوضوحٍ مسارات التاريخِ وقد رسَـمتْ لجـدّي طريقـاً يائسـاً، يأخـذني أيضـاً إلى مصائر لم أكن أتصوّر أنّي مُلاقيها. ودّعتكِ يا «زينب» ولم أجد فسحة من الزّمن لحسم أمر عشقي لك، فتركتُ حبالاً مُهملة على غـارب، وتسـرّب قلبـي بـلا هـدفٍ وبـلا وجهـةٍ، إلى مسـارب لا أعرفها. هربتُ إلى آفاقٍ بلا مغارب وبلا مشارق.

وقفتُ بوهني وضعف بدني، في قلب «بكين» عند بوابات «المدينة الحرّمة»، خاليـة هـيَ مـن أباطرة التاريخ، قُبالتها «المعبد السماوي» باستداراته الشاعرية. محض معبد خالٍ مـن كـل أبهـة وكل بهاء عرفته امبراطوريات الصين القديمة. لكن للعرَاقـة في «بكـين» رائحـة لا ينكرهـا أنـفُ التاريخ ولا أنوف زائريه. وقفتُ وفي معيّتي أسئلة مُعلقة على السُّور الصينيّ العظيم. .

كأنّ أسئلتي طارتْ على جناحِ حمامٍ زاجل. صبرتُ برهة ثمّ عـاد إليَّ هـديل الحَمَـام، فكانـتْ رسـالة «زينـب» إليّ هنـا، في بلـدٍ تحاصـره الثلـوجُ ، والبُرهـة بـين الخرطـوم وبكـين تتجـاوز الأسبوعين، وفروقُ الوقت هي فروق بين شمسِ النهار الآفلة وقمرِ الليل الطالع.

كتبتْ لي «زينب» في رسالتها، كلاماً أربكني وزلزل كياني:

(. . حاصروني أيُّها العزيز. .

لا أعرف كيفَ أشرح لكَ ما حدثَ بعد رحيلك. كنت أدّعي التماسك حين ودعتك في صالة المطار، وقد جهدتُ أن لا أجعلك ترى مقدار التباس مشاعري إزاء قرار سفرك إلى «بكين». أعرف تماماً أن مهنتك تفرض عليك أن تقبل بالقرار. أعرف أنّي لسبب ما لم أعبّر لك بصدقٍ عن حقيقة مشاعري. ربما لأنّي تعوّدت أن أراك وأسمعك. أن تراني وتسمعني. لم تكن بيننا رسائل من أيّ نوع. ظلّ صديقاك «سليم» و«ميلاد» بقربي ، يهتمان بي ويحادثاني أكثر مما كنت تفعل أنت ، هل تصدّق. . ؟

في لحظةِ السّفر، في لحظة المغادرة والطائرة تتأهّب للطيران ، أحسستُ بعِظم فقدك. رأيتُ الوقائع التي عشناها معاً، تتداعَى أمام ناظريّ مثلما تتداعَى وريقات الشجر في خريفٍ قاسٍ وجاف. اليوم الأول الذي التقينا فيه، بدا رمادياً بلا لونٍ واضح. مكتبة عمّك الراحل، خبتْ تفاصيلها وبعدتُ عنها. الشِّعر الذي قرأناه معاً، لم أعد أميّز أوزانه وقوافيه. الرواياتُ بلا طعم. المخطوطاتُ تشابهتْ أمام ناظريّ فنسيتها . الصحفُ القديمة صارت خربشات في الذاكرة، ضائعة في ثنايا التشويش. ثمَّ أيامنا في جامعة الخرطوم. هذه صوّرٌ لها بقايا عالقة بذاكرة واهنة. برغم مشاغبات السياسة، لكنّي لم أنشغل عنك وقتذاك. . كنتُ أراك تبعد شيئاً فشيئا بحكم اختلاف تخصّصاتنا. بحكم تباين اهتماماتنا. .)

وأنا في صحن الكنيسة الصينيّة . .

عند منتصفِ القدَّاس، والتراتيل المُبهمة لها أصداء ورهبة، اقتربتْ مني «هُوا»، تركتْ يدها تقترب من يدي، وشبكتْ أصابعها بأصابعي، تتحسس حرارة بدني. بيدها اليُمنى رسَمتْ إشارة الصّليب، وأخذها الانتباهُ بعيداً عنّي. تنقّل بصري في أنحاءِ الكنيسة. الأسقفُ والشمَامِسة يتلون تراتيلهم في خشوع اللحظة. الجدران الملوّنة وكأنها من زيتٍ حي. السقفُ العالي وقد احتشد برسومات إنجيلية، كما في كنيسة «السيستين». اقتربتُ من الرَّاهب الصينيّ وقد رمقني بعينٍ مُستطلعة. قبَّلتُ يده استنجد به، ثمَّ وضع يدهُ على رأسي في حنوٍّ، وصديقتي «هُوا» تترجم اللغة بيننا:

– باركَكَ الربُّ يا بُنيَّ . . مِن أيّ البلادِ أنت . . ؟

– من مكانٍ بعيد . من السُّودان يا أبت. . بلد كبير في أفريقيا. .

تقترب الصبيةُ الصينية من حياضي، وكأنّها تتحدّى قمعَ الطريقِ لمحبّتنا، تمد جسراً واهياً بين شطّين تباعدا، ولن تفلح أحلامنا معاً في استرداد عاطفةٍ اقتسمناها في مدينةٍ من تراب، ثم بدّدها شتاءٌ غريبٌ وقاسٍ هنا في «بكين». .

الصُّداع يؤلمني. ماذا كتبتْ «زينب» لي، وأنا في النصف الآخر من الكرة الأرضية، تنام وقتَما أصحو أنا، وأصحو لحظة تغفو هيَ. . ؟ غامتْ عيناي وأنا أتابع رسالة «زينب»، سطراً سطرا :

(كُنتُ معكَ في كنيسةِ «الشهيدين» في زواج صديقك «ميلاد» . للمرّة الأولى أزور تلك الكنيسة برفقتك. خرجنا من بوابة الجامعة وأنا في ثياب الدّرس البيضاء، ولم تمهلني- من عجلتك- لأرتّب رداءً وثوباً يليقان بحضور مناسبة مميّزة، لا تتكرر إلا نادراً. أتذكر الآن كيفَ كنتَ تمسك بيدي وتشرح لي أنّ الطقوس هي ذات الطقوس التي عندنا، غيرَ أنّ «المأذون» هنا، راهبٌ بلباسٍ ديني فضفاض يحمل بيده صليبَ التبريك، وقلنسوة مذهّبة فوق رأسه، وخشوع يلفنا جميعا. بعد كتابة العَقد، زغردتْ النساءُ، قريبات العروس . . لا أستطيع أن أعبّر لك عن فرحتي تلك الأمسية. كنتُ أتخيّل نفسي أقف أمامك وتقف أمامي، نُشهد العالمين من حولنا أننا . . يمكن أن نعبُر إلى واحةٍ تجمعنا، مثلما جمعتْ صديقتي «مجدولين» بصديقك «ميلاد».. هل قلتُ لك أنهما يعدّان للسفر إلى لندن سفراً بلا عودة.. ؟)

« زينب الشقيلي». .

كيفَ التقيكِ والسيوفُ القواطع مُشهرة يا «زينب»، في الطريقِ إليك. . ؟

قال جدّي «جورج» ل«ماريان» :

– ليبارك الرّب خُطاكِ . . لكنك لـن تـدركي دقـائقَ الإختلافـات، يـا بُنيتـي. . لا أريـد لـك المعاناة التي عشتها أنا حين طلبت أمك من أهلها في «أسيوط». .

كان صادقاً في الذي قاله، غير أنّهُ في آخر الأمر رضخ لرغبة ابنته وقبِلَ بـــ«سِـمعان» القنـاوي زوجاً ل«ماريان». هذه رواية من روايات الجذور في مدينة التـراب، مغسـولة بميـاه النيـل، وقـد تساقينا منه ما عمّدنا أهلاً وعشيرة وأقرباء، لا يفرّقنـا انتمـاءٌ لعقائـد متباينـة، أو دخـولٌ لمعابـد، مختلفٍ ألوانها وأبوابها وسقوفها. ولكن . .

كيفَ الطريق إليكِ والسيوفُ القواطع مُشهرة من حولي. . ؟

كتبتْ حبيبتي «زينب» في رسالتها إليّ وعلقتْ بذاكرتي سطورها ، بل حفظتها عن ظهر قلب:

(تسرّبتَ أنتَ مِن بينَ يديّ وغادرتَ إلى بلادٍ، لا يشبه أناسها أهلك، ولا لغتهم تشبه لغتك ، ولا عقائدهم أو سياساتهم، تلاقي شيئا منك. وقفتُ أنا والحيرة تتلبّسني، لم نلتقِ إلا عـلى جـوارٍ حميمٍ في حيِّ «المَسَالمة»، وعلى صداقاتٍ جَمعتْ أعمامي وأخوالي بأعمامك وأخوالـك، وعـلى تصاهرٍ بعيدٍ بين أسرتينا. تنفّسنا معاً عيشاً آمناً في تلك البقعة، ولم أعرف بقعة في تاريخي غيرهـا، ولا مكاناً حوَى عمري غير مكانها. .

في آخر اليوم جاء عمّي «صِدّيق» ينكر عليّ ما تآلفنا عليه ، وما شكّل تاريخا لنا. جـاء عمّـي ليقف على خطٍ وهمي يفصل بين أهلي وأهلك، يرفع سيف التهديد من ضفةٍ أخرى. جاء إلى أمّي وقال لها: على بنتك أن تقطع أيّ صلة بالنصراني «عزيز»، وأنّهُ لن يسـمح بعلاقـات بيننـا وبـين أهله. صدمني حديثه. واجهتهُ ولم يقبل أن يستمع إليّ . أرعد وأزبد وطاف على أعمامي وأخوالي وألّب عليّ جمعاً كبيراً من أهلي. كِدتُ أقرّ أنْ ليس بيني وبين «عزيز سِمعان» مِن شيء. أخضعوني إلى تحقيقٍ وكأني ارتكبت خطيئة أحاسب عليها. لم يكن أمامي إلا أن أنكر ذلك الذي جمعني بك . خفتُ على أمّي من بطش أهلي وسؤ فهمهم للذي بيني وبينك.

برغم انكَ غادرتَ ولم تحسم أمر ذلك الذي بيني وبينك، وكنت أعلم ممّا سمعته منكَ، أنّ المصاهرات المختلطة قد وقعت في أيـام بعيـدة في «المسـالمة»، وأن شـبان مسـلمين تزوجـوا بصبيات مسيحيات بل وهنديات، وتجاوزوا الصعاب. لكنك الآن وأنتَ في الصين البعيدة، أنـا أقلقُ عليك. أخشى أن يلحق عمّي بك أذىً من حيث لا تحتسـب. لـهُ علاقـاتٌ نافـذة برجـال نافذين في السلطة الحاكمة هنا، وهي سلطة لن تتعاطف معنا. كنتُ أشتمّ لهجة التهديدِ والوعيدِ في كلامه معي، فأخذتني ريّبٌ كثيرة . . .)

وأنا في صحن الكاتدرائية الصينيّة . .

أسمعُ همْهَمةَ الأسقف وطلاب الدّين الشبّان والشمامسة والمصلّين الصينيين من حولي، وكأنّهم قادمون من كوكبٍ بعيد. تحسّستُ يدَ الصبيّة «هُوا» وكأنّي أبحث عن شيء سيفلت من بين أصابعي، يضيع مِنّي. تشابكتْ أصابعنا، وتأكدّتُ أنّي في كاتدرائية «بكين» لا في كاتدرائية «القديس متى»، قبالة النيل الأزرق في الخرطوم. همهَمةُ المصلّين من حولي لها طنينٌ كرنينِ الأجراس وإرعادٌ كإرعاد الصواعق. كان صوتُ «زينب الشقيلي» يُجلجل من حولي وأنا في كاتدرائية «بكين»، أبعُد عن حياضها بآلاف الأميال. بيننا شموسٌ تتعاقب، وأقمارٌ تتلفّع بغيومٍ لا أعرفها، وللسنوات أسماءٌ ما أنزل الربّ بها وَحياً، وقد سمعتُ أنَّ العام الجديد هو «عام التنين»، والذي قبله كان «عام الأفعى». حضارتنا القديمة في وادي النيل عرفتْ قبل آلاف السنين، أسوداً مقدسة وثعابين تُرسم على تيجان الفراعين. كِدتُ أرَى «ترهاقا». كِدتُ أرى الإله القديم «أبادماك» يطلّ مِن برجِ الكاتدرائية الصينية . .

تطوف الصّورُ بخيالي تباعاً، ولكن لم يفارقني ذلك الصّداع الذي ألمّ بي منذ أيّام وتفاقم مع سهرة البارحة، ثمّ تضعضع بدني جميعه بالحُمّى. وقفتُ طويلاً أعيد قراءة الفقرةِ الأخيرةِ في الرسالةِ اليتيمة التي وصلتني من الخرطوم :

(. . لكنك الآن وأنتَ في الصين البعيدة، أقلقُ عليك. أخشى أن يُلحق عمّي بك أذىً من حيث لا تحتسب. لهُ علاقات نافذة برجال نافذين في السلطة الحاكمة. كنتُ أشتمّ لهجة التهديد والوعيد في كلامه معي، فأخذتني ريّبٌ كثيرة . .)

آهِ يا «زينب». ماذا أقول عن عمِّك الذي غمّني . . ؟

هاهو التاريخ يعيد قصة جدّك «سلطان الشقيلي»، وهـو يعـارض جـدّي «بطـرس» في اقترانـه ب«أمِّ السَّعد».

تملكني غيظٌ حقيقي لم أعهده في نفسي. ما غضبتُ من أحدٍ من قبل، قـدرَ غضـبتي مـن هـذا الرّجل الذي آثر أن يفتح معركة معي من مدينته الترابية، وأنا في أقاصي الدنيا،

في منفاي المهنيّ، تقتلني حيرتي إزاء صديقتي الصينية «هُوا» وحبيبتي «زينـب». رأسـي يكـاد ينفجر بالصُّداع وبالحُمّى.

– هوا« . . هيا نُغادر الكنيسة . الألم يطحن بدني . .

دهمني ذلك الإحساس الغامض بأني مُقتلعٌ من مكانٍ ما . من زمانٍ ما.



«سَلِيْم شرقي» : بُطلانُ العِشقِ..

أصابتني رسالة شخصية جاءتني بالحقيبة الدبلوماسية مِن صديقي «سليم شـرقي» بمـا يشـبه الذّعر. أخافني ما كتب حول المصائر التي تنتظر، ليسَ مدينتي التي نشأت في حواريهـا وأزقتهـا وترابها، بـل الـوطن الـذي أحببـت، وقـد زُجَّ بـه في منعطفـات يُسـأل عنهـا رهـطٌ مـن الساسـة المخبولين. كنتُ على وعيٍّ واضحٍ أن الدبلوماسية التي امتهنتْ، هي غير السياسة التـي لم أحبّهـا أبداً.

حدّثني عمّي «جريس» عن جلسات العجوز «أنطون شرقي» – جدّ صديقي سليم– في محله القديم في سوق «أم درمان»:

– كنتُ صبياً يافعاً أرى بعيونٍ لا تدرك الكثير مما يجري حولها، أناساً مـن مشـارب شـتى ، يجلسون في محل «أنطون شرقي» . كان أخي الكبير «سِمعان» جزءاً من هذه الجلسات، أما أنا فلم أقترب منها بسبب فارق السن . كان بعضهم يأتي من كلية «غوردون التذكارية»، بجلابيـبهم وقفاطينهم ومعتمرين عماماتهم المميّزة. بعض جلساء النـدوة يـأتون بملابـس أوروبيـة وعـلى رؤوسهم طرابيش مصرية وبعضهم بقبعات أوروبية. كنتُ أتسمع جـدالهم في السياسـة وأمـور البلد. قليلٌ فهمته وكثير فات عليّ. .

قلت لعمّي ممازحاً:

- لعلك لم تكن مولعاً بالسياسة وفاتَ عليكَ فهم دقائقها. .

- ولا أريد لكَ التيه في مساربها. ستحبّ الدبلوماسية وستبرع فيها بقدر نجاحك في الابتعاد عن السياسة.

- ألا ترى التناقض في حديثك يا عمّ. .؟

- ثمّة خيوط شفافة بين الإثنين، ولكن يسهل على الحصيف تمييزها .

الصّداقة التي جمعتْ آل «سِمْعان» بآل «شرقي» لم تنفصم عُراها أبداً. صديقي «سليم شرقي» كان على وفاءٍ للصداقة التي جمعتْ بيننا السنين الطوال. كتبَ إليّ رسالة زلزلتني، وأنا أكابد غربتي وعلّتي وحيرتي في «بكين»، بعيداً عن مدينتي . بعيداً عن ترابي :

(. . ثمّة أمور استجدتْ بعد رحيلك يا صديقي، وكان عليّ أن أصارحك بها. ابن خالي «ميلاد» حزم أمتعته ولملم أطرافه ورحل إلى لندن، يطلب أن تمنحه الحكومة البريطانية وضع لاجيء، لأسباب سياسية ودينية. عروسه «مجدولين» ستلحق به خلال شهر أو شهرين. صديقنا «سماره» غادر كذلك إلى أستراليا. نعم . إلى أستراليا مرّة واحدة . . ! حتى من غير أسرتنا ومن غير طائفتنا، سمعتُ أن ولداً من أسرة «نيان» الهندية ، على وشك المغادرة النهائية إلى أستراليا أيضاً.

أنتَ بعيدٌ في آخر الدنيا، ولابدَّ أن تعرف. قل لي وصارحني، هل بلغك ما حلّ ببنت «الشقيلي» . . ؟)

بماذا كان يريد أن يسرّ إليّ صديقي «سليم» . . ؟

لقد تسلمتُ أكثر من رسالة من «زينب الشقيلي»، ولكن لم أعمد إلى كتابة أي ردٍّ على رسائلها، وأنا على تردّد من أمري معها. غادرتُ الخرطوم قبل أكثر من عامين، وانقطعتْ عنّي تماماً أخبار أهلي وأسرتي، إلا ما يصل إليّ عبر الحقيبة الدبلوماسية، من رسائل لا تحمل أنباءً تروي الغليل أو تشفي العليل. أعرف أن تردّدي قد أجبرني على ترك أمر علاقتي ب«زينب» بلا حسم. بلا نهايات مقنعة. «زينب» جرحٌ نازف في دواخلي، بلا توصيفٍ وبلا عنوان. هي جرحٌ ناقصٌ لم أشأ أنا أنْ أكمل تضميده على الوجه المُقنع، فلم أمحُ آثاره محواً كاملاً، كما لم أثبّته بما يفضي إلى نهاية مثل نهايات المسلسلات والأفلام السينمائية ، يلتئم الطرفان في اقترانٍ تاريخيّ ، يسعد الجميع فتكون الخاتمة. .

كتبَ إليّ صديقي «سليم شرقي» بما أغرقني في الحُزن العميق:

(. . إنّ وضعنا في مدينة التراب، كما كنتَ تسميها، هو وضعٌ ملتبسٌ في آن ، ومزعج في آنٍ آخر. تعرف أن ليس للأقباط أهلنا من وطنٍ غير وطنهم السودان. لم نستشعر غربة في البلاد ، وقد قدم إليها أجدادنا منذ مئات السنين. ليس ذلك فحسب بل يقول التاريخ إن المسيحية كانت في المقرّة وعلوة ودنقلا وسوبا. لم يكن ديننا غريباً أبداً في تاريخ بلاد السودان . ما الذي يجبرنا للتوجّس مما يقع من حولنا. . ؟

سمعنا عن جماعةٍ هنا بلغ بها التطرّف أنْ رأتْ في تماثيل التاريخ ، أصناماً لن يكتمل إيمانهم إلا بعد تحطيمها، مثلما فعل النبي إبراهيم، أوّل التاريخ. بعضهم ظنّ أن تماثيل الفراعنة القديمة في متحف التاريخ القومي، هي أصنامٌ لا أكثر ولا أقل.

لن تصدّق يا «عزيز»، وأنتَ الآن تشغل وظيفة كبيرة في سفارة بلادك في أقاصي الدنيا، أنّ ثمّة من يشكك في انتمائك. ثمّة من تجرّأ ورأى في وجودنا، ونحن أقلية من السودانيين الأقباط ، مدعاة لتساؤل ينتظر إجابة. إجابة حول ماذا ؟ لا نعرف ولا أحد غيرنا يعرف.

جدّي «ابراهيم الخليل» الذي لا شكّ سمعتَ عنه في التاريخ، كان يدير حسابات «الخليفة عبدالله التعايشي»، بل كان المتصرّف الأول في الإيرادات والمنصرفات، ولم يطالبه خليفة المهدي بأن يتحوّل عن عقيدته أو يهجر ملته. بقي «ابراهيم» هذا على مسيحيته مثلما بقي في مهنته، مسئولاً يثق الخليفة «عبدالله التعايشي» المسلم في حسن إدارته لمالية الدولة. بعضُ الجهلاء ممن لم يتنبّهوا لحكايات التاريخ لم يسمعوا بذلك. .

نحنُ يا صديقي في مِحنةٍ حقيقية ، وليسَ سهلاً أن تجد من يسمع أو يُعمِل عقلا يُقيس الحقائق، يمحصها ولا يلغي التاريخ. هل أحكي لك كيفَ كان احتفالنا بليلة رأس السنة الميلادية في «المكتبة القبطية» في «أم درمان». . ؟

تداعينا تلك الليلة إلى «نادي المكتبة القبطية» ونحنُ قلّة مِن أهلنا السودانيين الأقباط. ليس بيننا من جيراننا في الحيّ من المسلمين أحد. تبرّع فتية من جوقة الكنيسة الموسيقية لمساعدة الفرقة الغنائية في إحياء الحفل. التوتر ساد في المكان. قبيل الساعة العاشرة، علمنا أنّ السلطات لن تعترض على استمرار الحفل إلى نحو ساعةٍ بعد منتصف الليل. كان علينا أن نستجدي إذناً لتكون ليلة رأس العام الميلادي في العاشرة مساء، لا في الثانية عشرة، فتصوّر! هكذا. . فيما استغرقنا ذهولنا ذاك، كان علينا تغيير حركة الشموس والأقمار وبقية نواميس الكون، لتتوافق مع ساعات منع التجول، وإظلام الطرقات وإخلاء الأماكن العامة وإغلاق الحدائق، كما اقتضتْ أوامر السلاطين هنا. ثمّة عبقري كان ينتظر أن نطلب إذناً نعيد بعده ضبط ساعاتنا لتبدأ السنة الجديدة عند العاشرة لا الثانية عشرة. . لحق التشوّه بأعيادنا ولقاءاتنا الحميمة ، وبقيت لنا ذكرياتٌ بعيدة عن تسامح يلوح في سقف الذاكرة مثلما تلوح العنقاء في خيال حالم. لم يعد التراب في «مدينة التراب» هو التراب . ثمّة شائعة عن نوايا بعض المخبولين تغيير إسم «حيّ المسالمة» . ثمّة قصصٌ كثيرة تنتظر أن تصل إلى أذنيك ولكن ، قل لي : هل بلغك نبأ «زينب الشقيلي»؟

دعني أصارحك بالحقيقة. ساءتْ حالتها النفسية لدرجة بعيدة، وقد أجبرهـا أهلوهـا عـلى اعتزالِ الناس. لم نعد نراها في مُنتدى عمّك الرّاحل «جريس» الـذي عملنـا بوصـيتك فأحيينـاه، وكأنّ «جريس» حيٌّ لم يمت، ومكتبته ملاذنا الحميم الآمن بعد أن حاصرتنا موجة من التطـرّف والتزمّت الغريب. ما عادتْ أيامنا كما في السـابق فقـد تبـدد مـذاقها الحلـو بعـد رحيـل عمنـا «جريس». انقطعتْ «زينب» عن المجيء إلى المكتبة، ولحق بهـا عـددٌ مـن أصـدقائنا في «حـيّ العمدة». . سمعتُ من الجيران أنها مريضة باكتئابٍ حاد، وأن خالها وعمّها أخذاها إلى شـيخٍ في قرية «أم ضواً بان»، يعالج مرضاه بآياتٍ من القرآن الكريم. نصحتْ بعضُ النسوة أمّها أن تـنظم لها حفل «زار»، فتصوّر. . ! عجز الطبُ عن مداواتها، ونحن في دهشة ممّا وقع لها. قيل إنهـا لم تقبل الزواج من قريبٍ لها طاعن في السن وغير متعلّم ، يريدها زوجة ثانية، وقد قبـل بـه عمّهـا «صدّيق الشقيلي» وهو من المقرّبين لرجالِ كبار في السلطة، وصار من قيادات «الدفاع الشـعبي» النشطين في القتال الدائر في جنوب البلاد. صراحة أنا أخشى عليـك منـه وقـد يؤذيـك أو ربمـا يحرّض أصدقاءه في وزارة الخارجية فيحيلونك إلى ما يسمّونه في لغتهم «الصالح العـام»، إنهـم يتوجّسون من كل قبطيّ، ناهيك ممن تجرّأ مـنهم وتعلّـق بمُسـلمة ! . مسـكينة «زينـب». أمّهـا المغلوبة على أمرها، لا ترغب في أن ترى ابنتها تدخل إلى سِن الحرَجِ والعنوسة. لا أحـد يسـأل كيف تحوّلت «زينب». . تلك الفتاة الطيبة، بين يومٍ وبعض يوم، إلى كتلةٍ مـن الهـزال الآيـل إلى الأفول. لا أحد يعرف عن قصتكما . . إلا أنا وربّما عمّها المخبول «صدّيق». لا يجرؤ أحـد أن يثير الموضوع. أعانك الله أيها الصّديق. قل لي هل لا زلت تكتب لها الرسائل . . أما نبهتـك أن لا تسرف في عشقٍ باطل. . ؟)

زلزلتني رسالتك يا «سليم»، وأنا في أقصَى الشرقِ. كنتُ أتوجّس مِن عمّها «صـدِّيق سـلطان الشقيلي» توجّساً عارماً وهو ما حدا بـي منـذ البـدايات أن لا أفاتحـه بـأمر علاقتـي بابنـة أخيـه، وفضّلت أن يقوم بالأمر عنّي، عمّي وصديقه الراحل «جريس». لكـن رحـل عرّابـي في العشـق، بغتة إلى موسكو وخرج من الدنيا. رحل عرّابي في الدبلوماسية وتركني، بلا بوصلة تعين، وحيـداً أمام أقدارٍ مُلتبسة. رحلَ عرّابي لاستطعام تسامح «المسَالمة»، وها أنـذا أسـتطعم علقمـا مُـرّا. . بعد رحيل عمّي، شاع أمر علاقتي بالبنت. كنتُ أحسّ بعمّها يدور حـولي، ومـا بيننـا مـن كـلام، مثلما يدور الأسد حول فريسة ينتظر أن يهلكها الإعياء فينقضّ عليها.

زلزلتني رسالتك يا صديقي «سليم». .

قضيتُ ليلتي في سكني مستوحشاً، مُنقطعاً عن الخلق. هاتفني صـديقي وزمـيلي في السـفارة المستشار «بشير». تردّدتُ في الرّد لبرهة، وقد كنتُ أعرف أنـهُ هـو المتصـل. دائمـا بـين الثامنـة والتاسعة مساء يتصل ليسأل عن أحوالي. هذه المرَّة ، هربتُ منهُ. هذه المرَّة ، أردتُ أن أختلي مـع مدينتي، مع أصدقائي البعيدين، مع حبيبتي التي هجرتْ، مع دمعي الذي لم ينهمر إلا في منتصف الليل. الساعة الثانية عشرة. الشوكة لا تغادر موقعها «البرمودي». «زينب» . . إني ذبحت براءتك وعليّ أن أدفع الثمن.

حفلُ رأس السنة. فتيانُ الحيّ المقابل وفتيان حيّنا: سمير حامد. سليم. محسن الشقيلي. ميلاد. كومار. صبيات «المسالمة» وفتيات حي «العمدة» : نجوى، وهاجر، ومحاسن، ووردة. مجدولين وشيرين. ضجيج الموسيقى يؤلّف بين قلوب الحضور. الأضواءُ تغيب. الظلامُ المُمتدّ لثواني، نحسبها : خمسة .

أربعة. .

ثلاثة. .

أثنان . . . ،

ثمّ الصياح وهرج الفرح وتبادل القبلات البريئة .

«زينب» . «زينب»، أينَ أنتِ . . ؟

لم أنم ليلتي وقد كاد رأسي أن ينفطر من الصُّداع، ومن الذّنب الذي قيّد إرادتي وفضح قلبي أمام قلب حبيبتي.

هاتفتُ صديقي «بشير» وحدّثته أنّ وعكة ألمتْ بي ولن أتمكن من الحضور إلى مكاتب السفارة. لم أشأ أن أزعج أحدا. في الحقيقة أنّ ألم الرأس سبّب لي ارتفاعاً في درجة الحرارة ضيّع شهيتي للأكل.

ليسَ لي مِن أنيسٍ يسند وحدتي إلا «هُوا» . هاتفتها قبيل المغيب.

– «هُوا». . هلا انتظرتني أمام بوّابة مستشفى بكين صباح غد. أحتاج لصحبتك ولمرافقتك لي . . ثم أنك ستكونين مترجمتي الرسمية.

ردتْ عليّ بقهقهةٍ طويلة، ثم قالت كأنّها تراوغ:

– ألن يشتبهوا بي . . ؟

– أذكّرك بحجّتك معي في الكاتدرائية. سأقول إنكِ السكرتيرة الجديدة في السفارة . . هل سيسألون عنكِ «مدام غوا»، سكرتيرة السفير الأولى. . ؟

– لن يفعلوا ولن تكون فضيحة. .

ضحكنا معاً .

– «أزيز» . . كنت هزيلاً للغاية وأنتَ معي في كاتدرائية بكين. . لا يمكن أن تغدو ضعيفاً إلى هذه الدرجة . قل لي إنكَ تتمارض حتى أزيدك حباً وحنوّا . . ما القصة يا رجل ؟

لم تفلح لغتها المرحة مع ألمي.

– دهمني نوعٌ مِن الإعياء لا أعرف له سببا . . هكذا فجأة وبلا مقدمات . .

ليستْ العلّة وحدها التي قرّرتْ أن تهزمني. في قرارة نفسي كنتُ أدرك تماماً أن ليسَ بمقدورِ الصبيّة الصينية أن توفِّر لي بيتاً أدخله مطمئنا. لن تمنحني الملاذ الذي أحتاجه في هروبي متضعضعاً مُنكسراً من مدينتي البعيدة، إلى بريّة بلا أفق . .

ترى هل أدركتْ هيَ أن عصفوراً بلا عشٍّ، لا طائل من التحليق معـه إلى فضـاءات مـلأى بنسـور جارحة، تتربّص بطيور «الدياسبورا» ، تغتصب هشاشتها . . ؟

قضيتُ ليلة في شقتي، هيَ مِن أتعس لياليّ في «بكين». .



تجلّياتُ الإعياءِ ...

عندَ الصباح هرعتُ أجرجر هُزالي إلى المستشفى المركزي في «بكين». كان الجوّ صحواً على غير العادة، لكنّها الأيام الأخيرة للشتاء الطويل. أوقفتُ سيارتي في مكانٍ مُريحٍ وآمِن، وسط غابة كثيفة من الدرّاجات الهوائية، تنتظر أصحابها في حظيرة تقع شرقي بوابة المستشفى. دلفتُ إلى صالة الاستقبال والحركة تدبّ على مهلٍ في المكان. جُلتُ ببصري في الرَّدهات الطويلة عسى أن أرى «هُوا»، وقد راعني اكتظاظ العيادة الخارجية بعددٍ كبيرٍ المراجعين والزوّار، ونحنُ بعد في الساعات الأولى مِن الصباح. تعمّدتُ أن لا أسأل عنها موظفي المستشفى. اقتربَ أحدهم مِنّي في تودّد صيني معتاد لمساعدة أجنبي يفترضون دائماً أنه لا يجيد التحدّث بلغتهم، وقال ملاطفاً في لغة انجليزية، وبلسانٍ صينيٍّ رخوٍ ولكنه مُبين:

- هل تنتظر أحداً . . ؟ هل يمكننا مساعدتك. . ؟

شرحتُ له أنّني من السفارة السودانية، وأنّي في انتظار سكرتيرتي من السفارة لمساعدتي، وهيَ التي طلبتْ لي موعداً مع الإخصائي، وقد تصل في أيّ لحظة. .

- لا عليك. . نحنُ جاهزون . .

أكملَ المُعاونُ الصيني إجراءات التسجيل. رفع سماعة الهاتف وتحدث بلغته – فيما توقعت– مع طبيبٍ مختص. جرى كل شيء بسرعة، وبحرصٍ دقيقٍ على أن أتلقى العون الطبي المطلوب. بعد كثير أسئلة واستفسارات، من نوع : هل تأخذ وجباتك بانتظام وما نوعها ؟ هل تنام لساعات كافية وهل لك رفيقة ؟ هل حرارة جسمك مستقرّة في درجاتها المعتادة؟ هل تعاني من أيّ علةٍ مزمنة؟ وكانت إجاباتي كلها سالبة ، فأنا قد فقدتُ شهيتي ولم أعد منذ يومين، آكل وجباتي بانتظام. أما عن النوم فالأرق والصداع أزعجاني، والحمّى قد هدّتْ بدني، والسُّكري على الحِمية بدا يزعجني. كنتُ حاسماً فيما يتصل بالرفقة، ولأدفع الشكوك ، أكدتُ أنّي بلا رفيقة وبلا رفقة .

في نهايةِ الفحصِ، قرّر الطبيبُ الإخصائي أنّ من الضروري أخذ عينةٍ من دمي لزراعتها وفحصها من جديد في المعمل المتخصّص، كإجراءٍ روتيني، ودرءاً لأيّ اشتباه، حسبما فهمت. الطبيب الصيني اللطيف، خفّف من قلقي واضطرابي :

– ربّما هو الحنين إلى الأهل. . أنت تفتقد أهلك هنا بلا شك، أليس كذلك. . ؟ كل شيء سيكون على ما يرام . . سأكتب لك أدوية مهدئة، ثم بعدها ستنتظم في برنامج العلاج.

أمضيتُ نحو ساعتين في المشفى، ولم تجيء «هُوا» كما وعدتْ. قلت لنفسي ربما منعها طارئ.

عدتُ إلى شقتي وقد تضاعف قلقي، ليس بسبب الفحوصات الطبية، بل لغياب صديقتي «هُوا». في اللحظة التي تمنيتُ أن تكون معي، لم تأتِ. قضيتُ الساعات الطوال مُمدَّداً على سريري. تناولتُ أقراصي المُهدّئة ولم أهدأ. لم تأتِ «هُوا» ولم تتصل. قبل خلودي إلى النوم وقد بدأت المهدئات تفعل فعلها، رنّ هاتفي. نظرتُ إلى ساعة يدي وتبيّنت أنها لا تشير إلى الثانية عشرة، بل إلى التاسعة مساء :

- مَن . . ؟ بشير . . ؟

- ومَن غيري يطلبك في هذه الساعة يا «عزيز». . ؟ وددتُ أن أذكّرك بدعوة الغداء غداً في فندق « الدب الأبيض» . لا تنسَ . بروف «بنجامين دينق» يتطلع للجلوس إلينا. .

تردّدتُ لبرهة ، ولكن كانَ عليّ أن أصارحه بحالتي الصحية:

- ألمَّتْ بي وعكةٌ طارئة يا «بشير»، أشدّ قليلاً من تلك التي اعترتني حين كنتُ معك قبل يومين، ولربّما لن أتمكّن من المشاركة وتلبية الدعوة غداً.

- هل هيَ وعكة حقيقية قد تمنعك من المشاركة. . ؟ ألف سلامة يا أخي. . ولكنّي ألحّ عليك أن تحاول قدر استطاعتك أن تكون معنا. .

- نعم سأحاول. . لكنك لاحظت يا عزيزي، كيف بدوت في تلك الليلة معكم. . ؟

- نعم . . أريدك أن تحاول. .

تمنّى لي ليلة هانئة، فيما الكوابيس تتربّص بي . .

كان مُصرّاً ولكني كنتُ موقناً أنّي لن أتمكّن من المحاولة، ولن أقدر على التحرّك بسيارتي إلى فندق «الدّب الأبيض» ، في وسط العاصمة «بكين».

صحّتي بالفعل لم تكن على ما يرام. .

عند حلول الظلام حاصرني ألمٌ مُطبقٌ وقاسٍ، لا قبلَ لي به. ارتفعتْ حرارة جسمي وكأنّ ما بي ناراً سرتْ في دمي واستعمرتْ شراييني وأردتني عليلاً آيلاً إلى انهيار وفناء. لا شهية لي لتناول شيء يسند ضعفي العام. استعنت بعقاقيري وارتحتُ لنحو ساعة، ولكن لم تغمض عيناي. أفرغت معدتي مرتين واستفرغت مرة وتحاملت إلى سريري والألم يضغط على مفاصلي . .

تذكرتُ بين الأرق والألم والحُمّى في آخر الليلِ، الصَّبيّة «هُوا». لِمَ لَمْ تجيء كما وعدتْ . . ؟

الألم أخصب تربة لتصاوير الوهم وأحلام اليقظة.

فيما يشبه الحلم، رأيتُ جدّتي «ماريان» في كامل حُللها وبهائها، تخرج من بيتها. رأيتُ جدّي «سمعان» الأول، هو الآخر يحمل تاريخاً طويلاً من النزوح القسري من الطين إلى الرّمل، ومن الخروج من بيتٍ والدخول إلى بيتٍ آخر، ومن الولوج إلى نفقٍ والعبور إلى نفقٍ آخر بلا نهايات. يترنح تاريخ سلالتي بين سفحٍ ووادي. قالتْ لي الأطيافُ في أرقي ومنامي المستحيل، أنّ الخروج هذه المرة، ليس خروجاً من معلومٍ معرّف، بل هوَ دخولٌ إلى مجهولٍ مُلتبس. ليس خروجاً فعلياً، بل هو خروج افتراضي مثلما كان دخولاً افتراضيا. جاء «سِمعان» القناوي إلى «ماريان»

مثلما يأتي النيل الأزرق إلى النيل الأبيض، يلتقيان اقتراناً، ثم يفترقان انصهاراً وزواجـا. هـو افتـراقٌ واقترانٌ في آن. «مدينة التراب» تنام في خاصرة «الخرطوم»، حيث يصير النَّهـران في زواج الطبيعـة عنـد «المُقرن» الجميل، نهراً واحداً يحمل في مسيره الطويل إلى مصر، جينات النيل الأبيض والنيـل الأزرق وقد تصاهرا. .

من نسلِ «سِمعان» القناوي و«ماريان»، جاء «بطرسُ» الشاعر. جاء عمّـي «جـريس». جئـتُ أنا، وفي جيناتي دخولٌ مقموعٌ وخروجٌ إلى ملاذاتٍ مُلتبسة. مِن «أزرقي» ومِن «أبيضـي» ، ينزلـق نيلٌ نسبوا مصر إليه هِبةً مِن الرَّب، مُختلفَ التكـوينِ إلى وادٍ مـن سِـحر. وقفـتُ محتـاراً لا أرى كيف تكون مصائري فيهِ، هذا الهجين الذي بلا لونٍ قـاطع، والأيـامُ لا تكشـف لي عمّـا تُخبّـئ . أيكون لون الرَّماد هو مِن مزْجِ النهرين، أم هو التِبرُ يخرج من بطنِ وادي النيل ، لامعاً براقا. . ؟

هاأنذا الآن أعتصر ذاكرة يحاصرها الإعياءُ لأكتب قصَّتي، وأجترّ خساراتي المتراكمة، تتقافز بين أصابعي وبين أضالعي وينكرها فؤادي، فلا شياطين الشّعر صنعتْ مِنّـي شـاعراً مثـل جـدّي «بطرس»، ولا تسامح «المَسَالمة» وثّق علاقتي ب«زينـب الشـقيلي»، ولا الدبلوماسـية رسّـخت هويتي وانتمائي. .

سألتُ الأطياف في هلوساتي واهتزاز ذاكـرتي : أيـنَ عمّـي «جـريس» وأيـن أنـتَ يـا جـدّي «سِمعان» القناوي، وأين أنتَ يا «بطرس» ويا «سِمعان» أبي، وسط كل هذه المُعادلات المُفضية لدخولٍ إلى بيوتٍ وخروجٍ منها، إلى انزراعٍ واقتلاع، إلى انكشافٍ والتباس، إلى هلاكٍ ومـوات . . ؟

أينَ أنتِ يا «زينب» ، أين أكونُ أنا . . ؟

للمرَّة الأولى تسقط عن ذاكرتي متعلقات تاريخي. تخلّت عنّي في اعيائي، هلوساتي ورؤاي وأحلامي. أوّاه. . كمْ هيَ قاسية الوحدةُ . .

لم تأتِ الصبيّة الصينية لتسند ضعفي، وأنا حيلتي في انكسار، بل غابتْ وتركتني لوحشةٍ لا فكاك منها . .

إشاراتُ الخروج إلى فضاءاتٍ بلا أفقٍ ، تلوح لي كالبروقِ الخاطفة . .

ناديتُ بصوتٍ واهِنٍ : «زينب» . يا «زينب الشقيلي» . . إنّي هنا أناديك. .

هذيانُ النهار أشدّ إيلاماً من هذيانِ الليل، فكيف يصلك صياحي وأنا هنا وأنت هناك، ضيفة على شيوخٍ، يعتقد الناس أنهم يفكّون ضائقاتهم بأسرار من آيات الله، ويفرّجون كربهم بسوَرٍ من القرآن الكريم. أمدّ ذراعيّ لأشباحٍ لا أراها، وأستدعي خيالاتٍ لا تسمع صياحي، وأنادي أهلاً في بيوتٍ أنكرتني. .

لم يبقَ لي في خاتمةِ الأمر، إلّا صديقي «بشير»، وسأقول لهُ كل شيء. سأترك قِصَّتي وكرَّاساتي عنده، فمَن يأمَن الأقدار في هذا الزَّمنِ المُستعصي. . ؟

كتبتُ في آخرِ سطرٍ من مخطوطتي بيتَ الشّاعر أبي الطيّب، الطافِح بالحسرات :

أظْمَتْنيَ الدّنْيا فَلَمّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عليّ مَصائِبَا

وإلى ذلك بقيتْ دمعة مُعلقة في عيني . .

انتهتْ ثُمّ بدأتْ. .

الفهرس